# Space and Socialization:
# A Sociological Approach to the "Houma" in the Moroccan City

**Dr. Mohamed ELMARJAN**[1]

Faculty of Letters and Human Sciences
Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco

---

Science Step Journal / SSJ

2024/Volume 2 - Issue 7

**To cite this article:** Benabdallah, A. (2024). Space and Socialization: A Sociological Approach to the "Houma" in the Moroccan City. Science Step Journal, 2(7), 01-31. https://doi.org/10.6084/m9.figshare.28121474. ISSN: 3009-500X.

---

## Abstract

The Studies in urban sociology have demonstrated the significant and influential role that traditional cities played in shaping the social identity of their residents, as well as how they continue to impact various behaviors and social and cultural relationships. This influence affects both individual and collective behaviors within the traditional city. Furthermore, the customs and attitudes of residents often resemble one another, primarily due to the nature of communal life in urban and popular areas known as "Al-Houma" (neighborhood). This suburban area formed the foundational framework upon which the social, cultural, and economic interactions specific to its residents were built. At the same time, it acted as an intermediary element, facilitating and consolidating the socialization of its inhabitants. Thus, this entity represented a secure urban fabric through which social and spatial practices contributed to building and strengthening the urban integration of its residents.

Given this, to what extent has this entity been able to maintain its function after the emergence of the modern city? And was it able to develop defensive mechanisms against the economic, urban, and cultural transformations brought about by the rise of the modern city?

## Keywords

Social personality, socialization, urban identity, functional areas Houma.

[1] Professor and Researcher in Urban Sociology; Ibn Tofail University, Letters and Human Sciences, Kenitra, Morocco. elmarjanhadd@hotmail.com


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

# المجال المديني والتنشئة الاجتماعية: مقاربة سوسيولوجية لمفهوم "الحومة" بالمدينة المغربية

**د. محمد المرجان**[2]

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن طفيل ، القنيطرة، المغرب

## ملخص

لقد أثبتت الدراسات الخاصة بعلم الاجتماع الحضري الدور الهام الذي قامت به المدينة التقليدية في بناء "الشخصية الاجتماعية" لساكنيها، ومدى تأثيرها على توجيه العديد من سلوكياتها وعلاقاتها الاجتماعية والثقافية. مما يفيد أن السلوكيات الفردية أو الجماعية للساكنة داخل مجال المدينة التقليدية، وكذلك عاداتهم ومواقفهم تجاه بعضهم البعض، تعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة الحياة الجماعية في المجالات الحضرية المعروفة "بالحومة" (الحارة، الحي، ...). هذا المجال الحضري الفرعي شكّل القاعدة المورفولوجية التي تم على أساسها بناء الأشكال التفاعلية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية الخاصة بقاطنيها. وفي نفس الوقت، عمل كعنصر وسيط لتحقيق وترسيخ التنشئة الاجتماعية لأفرادها. وبالتالي، مثل هذا الكيان، النسيج الحضري الآمن، الذي ساهمت الممارسات الاجتماعية والمجالية من خلاله في بناء وتقوية الاندماج الحضري للساكنة. فإلى أي مدى استطاع هذا الكيان الحفاظ على وظيفته بعد ظهور المدينة الحديثة؟ وهل كان في مقدوره بلورة آليات دفاعية تجاه التحولات الاقتصادية والعمرانية والثقافية الناتجة عن ظهورها؟

## الكلمات المفتاحية

الشخصية الاجتماعية-الحومة- التنشئة الاجتماعية-الهوية الحضرية-القيم –المجالات الوظيفية.

[2] استاذ باحث في علم الاجتماع الحضري ، جامعة ابن طفيل ،كلية الآداب و العلوم الإنسانية ،القنيطرة ، المغرب. elmarjanhadd@hotmail.com


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

**إشكالية الدراسة ومنهجيتها**

شكلت المدينة المغربية بعمقها التاريخي والجغرافي تعبيرًا حقيقيًا عن التطور الحضري القائم على أساس رؤية عمرانية متقدمة، تسعى للملاءمة بين الوظائف الاقتصادية والسياسية والسكنية والثقافية لهذه المدينة. كما حمل نظامها المجالي عملية الإدماج السوسيو-اقتصادي على قاعدة القرابة والجماعة، موزعًا الساكنة حسب الأصل، والزبونية، والقطاع الاقتصادي، بدلاً من الطبقة الاقتصادية.

لكن مع بداية السيطرة الاستعمارية (الفرنسية والإسبانية) وحتى فيما بعدها، ستعرف المدينة التقليدية اختلالًا أفقدها جزءًا كبيرًا من مساحاتها ومن أدوارها ووظائفها. وارتبطت صورتها بساكنة فقيرة ومعدمة، وسكن مهجور، وبناءات مشوهة إلى حد كبير. كما تدهورت خدماتها الاجتماعية ومرافقها العمومية، سواء في الحومات أو في القطاعات المركزية الأخرى. ولعل أكبر تحدٍ تواجهه المدن الحديثة في عملية تحولها وتطورها بشكل عام هو: كيف تحقق التقدم مع الاحتفاظ بالمقومات والمبادئ والأسس الضابطة للتعايش والتجاور والتراحم، الذي تميزت به المدن التقليدية في السابق؟

لذلك، يبدو الاهتمام بتاريخ هذه المدينة ورصد أهم التطورات التي عرفتها على مستوى بعض وحداتها الفرعية، وبالأخص الكيان الحضري المعروف "بالحومة"، على قدر كبير من الأهمية. فلطالما تغنّى به الكثير من الشعراء والأدباء والسينمائيين وحتى المؤرخين... وعبر الكثير منهم عن لوعة الحنين لهذا المجال الذي انغرس في ذاكرتهم، وساهم في بلورة جزء من هويتهم، وشكل موطنًا حقيقيًا لانتمائهم.

ولذا، تبدو هذه الدراسة محاولة للكشف عن الهوية الحضرية المتميزة لهذا المجال، ومدى تأثيرها في بناء «الشخصية الاجتماعية» للساكنة. ونظرًا لخصوصية الموضوع، فقد اعتمدنا المنهج التاريخي المهتم بدراسة الأحداث والظواهر ومشكلات المجتمع التي عاشها، من أجل التعرف على حيثياتها واحتمال التنبؤ بصلاتها مع الأحداث الحاضرة المكملة لها أو المختلفة عنها. طبعًا مع ما يحتمله ذلك من مقارنة محدودة بين الأمس واليوم. وبالتالي، سنحاول القيام بتشخيص نسبي لمستويات الاختلال الذي أصاب بنية هذه المدينة في مكوناتها ووظائفها الاجتماعية والثقافية والتنشيئية، عبر آليات الوصف والتفسير.

إن السياق الذي يوضح أهمية هذه الدراسة هو كونها تجيب اليوم على مجموعة من التساؤلات التي تنفي الدور الهام للمدينة القديمة في بناء بعض القيم التي ساهمت في أمن واستقرار ساكنيها. وفي المقابل، تؤكد على الدور المتقدم جدًا للمدينة المعاصرة في إنتاج قيم الحداثة والتنمية والرفاهية. وعلى هذا النحو، تم تحديد المتغيرة المجالية (المدينة التقليدية) كمتغيرة أساسية، في حين تم التعامل مع "الحومة" كمتغيرة فرعية تابعة، حاولنا تعريفها من الناحية الإجرائية، اقتصاديًا وديموغرافيًا واجتماعيًا.


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

**1- التأطير النظري وحدود المفاهيم**

في الحقيقة، إن الحدث الهائل الذي يتعين استيعابه هو قدرة المجال على الفعل، إذ لم يعد ديكورًا أو ملجأ أو في خلفية المشهد للنشاط البشري. وهذا الأمر أصبح متقاسمًا بين العديد من العلماء. وبالتالي، أصبح له دور أساسي في بناء شخصية الإنسان الذي يحتله وينظمه ويستغله في تحقيق أنشطته المختلفة.

لذا، لا يعتبر المجال إطارًا فارغًا تشكله رغبات وإرادات خارجية، بل هو قادر أيضًا على خلق وإنتاج القيم والقواعد والرؤى المعبرة عن معناه. واستنادًا لهذا التشابك، يصعب فصله عن مجموع الأفعال والأنشطة النابعة والمنبثقة في حدوده، ولا عن تصورات هذه الأفعال وتمثلاتها للأوضاع والوقائع. وبالتالي، تبدو التنشئة الاجتماعية التي نسعى من خلالها لبناء الإنسان، مسنودة في النهاية بطبيعة المجال الذي يحضنها، وفي نفس الوقت يصبح مكونًا من مكوناتها. ومن هذه الزاوية، ينبغي التأكيد على الأهمية المتنامية للمجال ودوره في التشكيلة الاجتماعية، علاوة على وظيفته في جعل المكان عنصرًا أساسيًا في بناء -وبكيفية إلزامية- العادات والممارسات والسلوكيات اليومية للأفراد والجماعات، باعتبارها القاعدة الأساسية لهيكلة الحياة الجماعية المشتركة[3].

يتعزز هذا الطرح بشكل قوي لدى مدرسة شيكاغو خلال العقد الثاني من القرن العشرين، في تساؤلها ليس فقط عن المميزات المفسرة لأهمية المجال الحضري، ولكن عن قوة التأثير التي يمارسها المجال في بناء كيان الحياة الاجتماعية في شكلها الحضري على وجه التحديد[4].

إن إبراز القوة المجالية لأي تشكيلة حضرية يقتضي الكشف عن كل تجلياتها البنائية والتعبوية باعتبارهما قدرات تنشيئية. بحيث يمكن الاعتراف مبدئيًا بأن أحلامنا وتصرفاتنا اليومية تنغرس في تربة عضوية محددة، هي نفسها عنصرًا أساسيًا في السلوكيات الاجتماعية الشاملة. وبهذا الافتراض نصل إلى القول بأن إدراك المجال لا يتوقف على تمثلاته الذهنية فحسب، ولكن أيضًا على إدراك جيد لوظائفه وتأثيراته المختلفة في سلوك الفرد المستجيب بدوره انطلاقًا من حالة سواء متوقعة.

هذه القوة الوظيفية للمجال تتحقق أيضًا كترتيب وتنظيم علائقي للخبرات الاجتماعية والكائنات البشرية في فضاءات معينة. بما يعني أن وجود الأشياء يتوقف على الترتيب المجالي الذي نمنحه إياها، بينما في المقابل، يمارس هذا الترتيب نفسه أو التنظيم المجالي تأثيره الخصوصي علينا.

إن المدينة لا تصبح فضاء مشتركًا إلا حينما تراقب أو تتحكم في مختلف الحركات التي تجري داخلها، وبالتالي في السلوكيات الإنسانية كمصدر ثابت لهذه الحركات. وبطبيعة الحال، يعني مصطلح الحركات في معناه العام كل تنقلات الأفراد والأشياء، وتغيرات الأشكال والأمكنة أيضًا.

[3] Michel Maffesoli :( 1971), p.51

[4] Louis Wirth :(1979), p.260


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

كما أن تنظيم المجال نفسه يتوقف على مراقبة وضبط مجموع السلوكيات، أي في القدرة على إيجاد الانسجام والتوافق الممكن بين المجال ومختلف التصرفات والمواقف والممارسات التي تجري في سياقه المحدد. وفي هذا الإطار، ما يمنحنا الإحساس الحقيقي بذاتنا هو تلك اللحظة التي نتماهى فيها مع المجال. لقد شرح LACANهذا الأمر في نظرية المرآة التي تساعدنا حين النظر فيها على إدراك حدود الذات، وعلى إدراك معالمها.

إن ما يسعى إليه هذا العمل هو محاولة التأليف والجمع بين المجالية في بعدها المادي، والسلوك الاجتماعي في أبعاده العلائقية والتنشيئية والعاطفية. اعتبارًا لكون المجالات لا يمكنها أن تتخذ معانيها إلا انطلاقًا من التوافق الذي قد يحدث ضمنيًا أو علنيًا بين المجموعات البشرية حول أهمية هذه المعاني وضرورتها بالنسبة لتنظيم المجتمع. مما يعني أن التطور الخاص لهذه المعاني سيؤدي في المقابل إلى نوع من ترقين المجال (*codification*). هذه العملية تتطلب حركة مزدوجة: فمن جهة تقتضي الاستئناس القائم حول أهمية وضرورة التوافق والانسجام بين المجموعات السكنية، ومن جهة أخرى ضرورة تطويع المجال وتسخيره لخدمة وظائف أو سلوكيات استراتيجية منبثقة عن تلك التوافقات بين المجموعات[5].

**أهداف البحث وأسئلته:**

يحيلنا هذا التقديم على بعض الأسئلة المؤطرة للمضمون العام والأهداف المتوخاة من هذا العمل. فهل يجب اعتبار المجال الحضري مجالًا فيزيقيًا لا ينتمي للحقل الاجتماعي، وبالتالي فهو غريب وبعيد عن المجتمع وتاريخه؟ هل يمكن إدراك أهمية المدينة في التشكيلات الحضرية الكبرى والمركزية، أم في المجالات الفرعية ذات الحدود الجغرافية والعمرانية المعروفة (الحومة، الدرب، الزنقة...؟). هل استطاعت التشكيلات الحضرية خلق نظام ثقافي وسلوكي يتحقق عبره التواصل التام بين ساكنيها؟ هل هي في النهاية كيانات حضرية قادرة على خلق إيقاع حركي يتمكن الفرد بواسطته من تحقيق الاندماج والتأقلم في المجال العمومي المساهم في بناء هويته؟

يحيلنا التفاعل الممكن حصوله بين هذه الأسئلة على فرضيات وتعريفات وإضاءات ترسم أفق البحث وحدوده. من الواضح أن التعريفات الدقيقة والجلية للمدينة تبدو نسبية على العموم. أما بالنسبة "للحومة" كتشكيل حضري فرعي للمدينة، فإنه يحظى على الأقل بالموافقة على التعاريف التالية:

أ) يشكل مفهوم "الحومة" إسقاطًا مجاليًا للمعاني الثقافية الخاصة بالعلاقات الاجتماعية. ويرتبط سكان الحومة عادة بروابط شخصية متعددة وبمصالح مشتركة. كما ترمز هذه الروابط إلى مفهوم القرب والجيرة. ولذلك فالوحدات السكانية المكونة "للدرب" مجبرة على تحقيق وحدة أخلاقية تدفعها في الغالب إلى اعتبار المجال الاجتماعي للحومة بمثابة الامتداد الطبيعي لمنازلهم الخاصة[6].

[5] Khattibi Abdelkbir : (1993), p. 65

[6] EicKlman(dale) :(,1980 ), p.200


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

ب) يتميز مفهوم الجوار أو الجيرة داخل الحومات بقدرته الفائقة على غرس مجموعة من القواعد التربوية التي تمكن من بناء هوية جماعية منسجمة نسبيًا، وذلك انطلاقًا من الانتماء إلى مجال معين أو الشعور بالانتماء نحوه حسب أخلاقية خاصة تتفاعل وتنمو في إطار شبكة من التواصل والتفاعل[7]، وأيضًا في ضغط حاجة كل فرد أو جماعة للآخرين.

ج) السكن بشكل عام داخل الحومة، بصرف النظر عن مستواه، يولد الإحساس بداخل هوياتي يحمل الساكن خلالها معالم ثقافية واجتماعية تعكس في غالبيتها المرجعيات الجماعية. ولذا يصبح مجالًا لتحقيق الذات وقاعدة للحركيات المكثفة والمتكررة وحافزًا لتجربة الأفراد، وفي نفس الوقت شاهداً على مستويات اندماجهم أو إقصائهم.

د) داخل الحومة يمكن التمييز بين مجالين: المجال الاجتماعي المهيكل الذي يفترض وجود قواعد واضحة معلومة ومكتوبة وخارجية بالنسبة للأفراد، ومجال غير مهيكل حيث ترتبط السلوكات بمنطق ضمني كامن وغير مكتوب. فالدرب أو الزنقة المميزة لحومة ما تُعتبر عنصرًا تنشيئيًا، لكونها مجالًا للتعلم التطبيقي والمعياري، وفي نفس الآن منتجة للقيم المعترف بها على الأقل من طرف أولئك الذين يرتادونها (الحومة).

**2- الحومة فضاء لبناء الهويات:**

يعد ارتباط المجموعات السكنية بالمجال أساسيًا ومباشرًا، فالجماعة بهذا المعنى تتعين على قاعدة احتلالها الثابت لمجال ترابي، وتتشكّل انطلاقًا من الروابط الجماعية الناتجة عن تجاور وتقارب السكن المتواجد بشكل دائم في فضاء محدد. ضمن هذا الفضاء تنفرد هذه المجموعة بشكلها الخاص، أي كجماعة متميزة لها حدود واضحة وبنية داخلية، ولا يمكنها أن تحظى بواقعها الجماعي في غيبة هذه الشروط، لأن تكوينها في النهاية هو مجالي واجتماعي في نفس الوقت. المجموعة الحضرية La collectivité urbaine كيان يشمل أجزاء لا تنحصر في القطاعات الجغرافية ولا المجموعات أو الطبقات التي تكون جميعها ما نسميه المجتمع المحلي، بل هي أجزاء تعرف سوسيولوجيًا بالسكن والجوار والحومات[8].

في هذا السياق يمكن القول إن الأجزاء هي التي تهيكل الإطار المجالي العام للمدينة التقليدية سابقًا، وليس العكس. لأن مشاعر الاعتزاز والانتماء لدى الساكنة، وإن كانت تبدأ من المدينة، فهي تتقوى أكثر في الانتماء للحومة. فما هو الدور الذي لعبته هذه الأجزاء الفرعية في تحقيق تماسك المجتمع الحضري التقليدي بالمغرب؟ وهل شكّلت الحومة كيانًا حضريًا نافذًا ومؤثرًا في السلوكات والتمثلات الخاصة بسكان المدن التقليدية؟

[7] Michel Maffesoli : (1988), p.27

[8] Denis Morin y Héloïse durler( 2005), p.123


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

**3 -مفهوم الحومة: أدوارها ووظائفها:**

يعرف ابن منظور الحومة من مضامين اشتقاقها على هذا النحو: «الحوم الخمر المعتقة التي تحوم في الرأس، والحوم هو القطيع الضخم من الإبل. والحومة من البحر والماء والرحل وغيرها، والحومة من القتال أشد موضع فيه. وقد درج العرب على إشراكها بالحمى وهي العشيرة وما قابلها التي تستوجب الذود والدفاع عنها[9].»

وعلى هذا الأساس، يرتبط المعنى الاصطلاحي للحومة بالتجمع وبالعصبية المعبرة عن الوحدة وتقاسم المشاعر والمواقف. ومما لا شك فيه أن المفهوم السكني للحومة شكَّل إطارًا أساسيًا داخل المدينة الإسلامية، خاصة بعد انتظام هذه الأخيرة كمحطة تجارية في غالب الأحيان، في أنماط من التنظيم العمراني والسكاني، وأنماط من تنظيم العمل وعلاقات التبادل في الأسواق والحومات. ولعل الدراسة التي قدمها Lapidus حول البنيان الاجتماعي والتنظيم السياسي لمدينتي دمشق وحلب في أواخر العصور الوسطى، حينما كانتا تحت حكم المماليك، تُبيّن إلى أي مدى عكست "الحارة" كوحدة مجالية فرعية دينامية اجتماعية تجلَّت في خلق أشكال من التوازن بين تدخل الدولة من جهة، وتطلعات المجتمع المحلي من جهة ثانية[10]. مما يؤكد الافتراض في أهمية مساهمة الحومة ككيان مجالي في تعميق مشاعر التضامن والجوار والتضحية والتعاون المتبادل بين ساكنيها. غير أن الوضع في المغرب يختلف نسبيًا عن غيره في المدن المشرقية، وهو ما يمكن إجماله في الملاحظات التالية:

- إذا كانت الحومة إطارًا سكنيًا يشمل عددًا من المؤسسات والهياكل الأهلية التي تؤدي مجموعة هامة من الخدمات الاجتماعية، فإنها رغم ذلك لا يمكنها أن تستقل من الناحية الإدارية، ولا يمكنها القيام بتعيين الشيخ أو المقدم، اللذين عادة ما يتوليان تدبير هذه الخدمات الاجتماعية داخل الحومة، نظرًا لكون الوظائف القانونية والاقتصادية تبقى غالبًا بيد السلطة المركزية.
- العصبيات المولدة للصراعات بين الحومات لا تقوم على أساس طائفي أو عرقي أو ديني، ولكنها عداوات تستمد عناصرها من حرمة الحدود الجغرافية للحومة التي تنفرد بها عن غيرها، والتي لا يمكن تجاوزها إلا في حالات التضامن والتعبئة.
- لم يعرف المجتمع المغربي الحضري حتى بعيد الاستقلال نظامًا سكنيًا قائمًا على أساس قبلي محض. ربما تحقق هذا الانتظام على أساس عائلي أو عشائري، ولكن دون أن يصبح المتغير القبلي فاعلًا حقيقيًا ومهيمنًا خلال هذه العملية[11].
- من الناحية المورفولوجية، تتميز الحومات بتخطيط هندسي متنوع، يختلف من حومة إلى أخرى. فهناك من يتميز بتخطيط منعرج ومتداخل يتمحور حول مركز معين (خاصة الحومات القديمة أو التي اعتُبرت من الأنوية الأولى للمدينة)، بينما تتميز حومات أخرى بتخطيط ذو تقاطعات عمودية.

[9] ابن مندور :لسان العرب(حرف الحاء)

[10] Lapidus I.M :(.1967)

[11] André Adam :.(1980), p.134


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

- وجود مسالك تربط بين الحومة والأخرى، وتقاطعات للعديد من الأزقة (أو الدروب)، تبرز في الغالب طابعها الجمعي. لكن الالتواءات والمنعرجات والأزقة الضيقة جدًا أو بدون منفذ، والمميزة لهذه الوحدات، تضفي عليها غموضًا لا يستشعره إلا الغرباء أو الأجانب. هذا التخطيط يجعلها في الواقع قادرة على امتلاك سلطة الإدماج وسلطة الإقصاء[12].
- يتراوح طول الحومة ما بين 800 متر و950 متر أو ما يزيد قليلًا، مما يجعلها في الغالب قادرة على استقبال، حسب بعض الإحصائيات التقديرية، ما بين 15 و20 عائلة.
- أسماء الحومات تتماهى مع أحداث تاريخية مشهورة، وشخصيات مرموقة، أو مجموعات حرفية أو مهنية ذات أهمية خاصة. كما يمكن معرفتها في سياق تسميات وأشكال أخرى، كأن تحمل الحومة اسم باب من أبواب المدينة الدال على نشاط يميزها (صناعي، ديني، اجتماعي، سياسي).
- من الناحية السكنية، ضمت الحومة نوعين من السكن، وذلك حسب الانتماء الاجتماعي والمهني والمادي للسكان. أولًا: السكن الرفيع ذو الطابع الأرستقراطي، ويشمل فئة الأعيان والخاصة ورجالات المخزن والشرفاء والعلماء والتجار. ثانيًا: السكن المتواضع المحدود في مساحته وتجهيزاته، ويضم أغلب الفئات الاجتماعية الفقيرة والمتواضعة كأصحاب الدكاكين والعاملين بمختلف حرف الصناعة التقليدية، إضافة إلى فقهاء الجوامع ... إلخ. ما حكم هذا النوع من العمران تحديدًا هو التشابه والتجاور بين مختلف الأشكال السكنية. وكان من الصعب جدًا التحقق من وجود الفروقات الاجتماعية المهولة بين الساكنة، انطلاقًا من الشكل الخارجي للبنايات. الأمر الذي لم يمنع من وجود فروق على مستوى الأبواب، والتي عبَّرت من خلال أشكالها عن الانتماءات الاجتماعية لأصحابها، وحتى وظائفهم وثقافتهم[13].
- التطور الديموغرافي الذي عرفته الحومات بعد الاستقلال لم يكن نتيجة للهجرة القروية نحو المدن فحسب، ولكن أيضًا نتيجة للثقافة الاجتماعية القائمة على التضامن والتكافل الاجتماعي بين مختلف الطبقات الاجتماعية، خاصة في المناسبات التي تقتضي إظهار قدر معين من التعاطف، كالولادة والموت والمرض. يذكر لوطورنو في كتابه حول مدينة فاس قبل الحماية أن الاحتفال بالمولود الجديد في الحومة بالنسبة لطبقة متواضعة، كان يستمر سبعة أيام بدلًا من يوم واحد، بفضل تكفل الفئات المترفة بكل مصاريفه. في مقابل ذلك، وعلى الرغم من التزايد العددي للسكان، كانت الحركة السكنية جد بطيئة، مما يمنح الفرصة للاستقرار والإقامة الطويلة، مع ما ينتج عن ذلك من نسج لعلاقات حميمية تقوم على المعرفة والاحتكاك والتواصل.
- تمثل الحومة أيضًا، حسب وصف أندري آدم (André Adam)، وحدة قوية بحدود واضحة ودقيقة. ففي المدن المغربية التقليدية، كانت كل حومة لها أبواب تُقفل ليلاً. تتوفر على المؤسسات الضرورية للحياة الروحية والمادية: المسجد، الحمام، الفران، والسوق. أما كيانها فلا يقوم على أساس إثني، ولو أن بعضها كان يحمل أسماء القبائل[14]. Paul Veille بدوره اعتبر

[12] محمد الزواقي و العربي المصباحي: 1998

[13] مثلا الأبواب المتميزة بالمزلاج العالي يعني أن المستعمل يركب حصانا و بالتالي فالمنزل لتاجر مرموق أو موظف مخزني

[14] André Adam :Ibid, p. 135


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

الحومة: كتجمع ملموس، بمعنى جماعة محلية لا تتحدد إلا عبر علاقاتها مع الجماعات المحلية الأخرى، حيث يتمكن الفرد المنتمي إليها من الاعتراف بواجبات يقبل حكمها، لأنها تحميه وتأمن وضعه تجاه الخارج عن الجماعة[15].

من خلال هذه التعاريف المندرجة في علم الاجتماع الحضري، يتأكد أن الحومة كيان مجالي واجتماعي ملموس، يتميز أيضًا بديناميكية عميقة تساهم في إنتاج الهويات الجماعية عبر الشروط التالية:

- **الجوار (Le voisinage) :** وهي دراسة لمدى إدراك واستعمال المجال من طرف الفاعلين الاجتماعيين، حيث يتم التأكيد على أهمية الجار باعتباره مدخلًا لوحدة المكان المستعمل والمشترك مع الآخرين في نفس الوقت. ولكن أهميته تتجلى على وجه التحديد في سماحه ببناء قنوات عديدة للعلاقات فيما بين الأفراد والجماعات. وبتعبير مافيزولي ميشيل: "يحيل التجاور أساسًا على قضية تأسيس إرث للهويات الجماعية (النحن)، والتي تشكل الجوهر العميق لأي إنسية ممكنة.[16]"
- **التمكن من إدراك الآخر داخل مجال الحومة:** لم يستند فقط إلى المعنى الديني المقدس لمعنى الجوار، ولكنه ارتبط أيضًا بما يعبر عنه الجار أو ما يؤديه من وظائف اجتماعية وخدماتية، على المستوى الفردي أو الجماعي. ولعل تضافر الوظيفتين الدينية والاجتماعية وبروزهما على مستوى السلوك والتعامل القائم بين سكان الحومة، يدفعنا لمناقشة الافتراض الذي طرحه بول ريكور حول التناقض الصارخ الذي طبع العلاقة بين الديني والاجتماعي في التراث المسيحي، وهو أمر لم تعرفه المجتمعات التقليدية لدينا، على الأقل خلال فترات تاريخية معينة[17].
- ربما غطت وحدة الجوار كل المناطق السكنية في العالم وشملت القرى والمدن على حد سواء، لكن طبيعة وأساس وجودها يختلف من مجتمع إلى آخر. إن وحدة الجوار مثلًا لا يمكنها أن تكون قوية إلا إذا اجتمعت واقتربت الأنشطة الاقتصادية من المجالات السكنية. أما في حالة التباعد بينهما، فهي تضعف لتقتصر على التواصل بين النساء فقط[18].
- مثل هذا التقارب بين الأنشطة الاقتصادية والسكن كان ملحوظًا بشكل واضح في الحومة بالمدينة التقليدية. لكن دعمه وتقويته تم من خلال سلوكات دينية واجتماعية تطلبت حضورًا جماعيًا، وتبادلًا قيميًا، وتواصلًا بين الأفراد والجماعات.
- **تداخل الفضاء العام والخاص:** المقصود أن علاقة الفرد بالحومة لا تقتصر على العلاقة السوسيولوجية للفرد مع الجماعة، لكنها علاقة الكائن الإنساني بجسده، بلغته، بحركاته، بقيمه وسلوكياته، في ارتباط من ناحية أخرى بعلاقاته أيضًا بالمجال العام الواسع، أي المجتمع الشامل بما يمثله من مؤسسات وتنظيمات. مع الانتباه إلى كون التداخل بين الخاص والعام لم يكن عاجزًا عن توفير حد أدنى من خصوصية الحياة الاجتماعية، خاصة بالنسبة للنساء والفتيات. لكنه غالبًا ما تمت سيطرة العام على الخاص، وبالتالي لم تكن الحياة الفردية محمية من رؤية الآخر ومن تهديد الإحساس بالاختناق الناتج عن

[15] Paul Veille :,(1986) p. 143

[16] Maffesoli Michel : 1979 p .62

[17] Maffesoli Michel : 1979 p .62

[18] Raymond Ledrut :,(1979), p. 112


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

كثافة القرب. وهذا ما يؤكده" :Ledrut لسنا متأكدين بأن هذه الحياة الخاصة كانت للفرد وحده أو للأسرة أو لواقع اجتماعي معين يغطي الفرد والأسرة معًا.[19]"

على أية حال، إذا كان البيت في إنتاجه وفي رمزيته تعبيرًا عن الحياة الخاصة، فإن (الزنقة) المحيطة به، كشكل خارجي ومنفصل، لم تكن مجردة من المعنى بالنسبة لسكان البيت وأهله. لذا اعتبرت في الغالب كامتداد لمجموع الأنشطة التي يشترك فيها مع الآخرين، كما شكلت متنفسًا حقيقيًا في مواجهة ضيق المساحات السكنية وتكدس الأفراد داخل منازل أعدت لاستقبال ساكنة محددة عدديا.

ومع ذلك، لا يمكننا التصديق بأن كل الأمور المتعلقة بالمجال الخاص للفرد أو الجماعة ظلت مشتركة ومعممة بين الجميع. لقد كان هناك رفض لأي تدخل نابع من أي جهة خارجية في قضايا جد خصوصية، مثل الحق في سرية الأجرة، تاريخ الازدياد، عقد الزواج، شؤون الأسرة، الكشف عن بعض الأمراض المستعصية، أو السؤال عن الزوجة، إذ يعتبر ذلك خارجًا عن اللياقة الاجتماعية.

**4- المجالات الوظيفية للحومة:**

لقد تسبب ضعف الحياة الخاصة في المدن التقليدية في منع تفتح الفرد وتنمية قدراته الذاتية، لأنها لم ترفق، في المقابل، بتنمية كبيرة للحياة الاجتماعية في الشارع وفي الساحات العمومية. لكنها خضعت في الغالب الأعم لتوزيع منطقي ونفعي يهدف بالدرجة الأولى إلى توظيف المجال بالشكل الذي يخدم ويساهم في تنمية العلاقات الاجتماعية وتفاعلها بكيفية مثمرة وإيجابية. لقد تم هذا التوزيع بكيفية عفوية، وترسمت وظائفه بحكم الاعتياد.

**أ. مجال الاستراحة:**

إذا كانت المجالات المفتوحة والساحات العمومية قليلة في المدن المغربية عامة، فإن ذلك لا يعني غيابها بشكل تام. لقد نعمت المدينة وبكيفية دائمة بفضاءات استخدمت كسوق أو ساحة للراحة والاستجمام أو كمكان للاحتفال بالمناسبات الشعبية. هذه الفضاءات لم تقتصر على المرافق المعروفة محليًا، بل عمدت الحومات بدورها إلى خلق أمكنة يتم التوافق عليها والإجماع الضمني حول وظيفتها. وبهذه الطريقة تم تكريس عادة اللجوء إليها، وارتياحها بشكل دائم، مع الحرص على ممارسة السلوك المتوافق معها بما يقتضيه من تواصل وتبادل وتفاوض وإخبار.

تتميز كل حومة بمجال استراحة هو في نفس الآن مكان للتجمع واللقاء بين ساكنيها من الأطفال والمراهقين وحتى اليافعين. تختلف الأسماء الممنوحة لهذا المجال حسب نوعية الثقافة المحلية بين حومة هذه المدينة أو تلك.

بعض الأسماء الخاصة بمجالات الاستراحة داخل الحومة في منطقة الشمال المغربي: (الدكانة، عتبة المسجد، رأس الدرب، الصارية، قاع الدرب، البرج، عتبات البيوت المهجورة، تحت الأقواس).

[19] Raymond Ledrut : ibid, 103


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

تعينت وظيفة هذه الأمكنة في توزيع الأدوار وإعادة توزيعها بين الأفراد. وبالتالي، تبدو حركة الوقوف واللجوء أو الجلوس المؤقت كبداية لنشاط جديد سوف يحمل المجموعة لآفاق عملية أخرى. كما يعد أيضًا كضبط اجتماعي يقوم على إحصاء مباشر للحاضرين والغائبين، والبحث عن تفسير الغياب أو الاستفسار عن أحوال الحاضرين، مع تبادل الأخبار المتعلقة بالأحداث الجارية، وبناء المشاريع المزمع القيام بها.

لكن بعده المكاني لا يعتبر ثابتًا بشكل مطلق نظرًا لتغير حدوده ومواقعه حسب حاجيات الأفراد والضرورة التي تفرضها مراعاة الآخرين والجيران على وجه الخصوص.

**ب- مجال الحركة:**

من الصعب تعيين الحدود الطبوغرافية لهذا المجال، ولكنه يمثل كل المسارات والتشعبات أو الطرق الفرعية التي تصب في ما هو رئيسي، خاصة في المرافق الأساسية (الطريق المؤدية إلى المسجد، أو الفران، أو الحمام التقليدي، أو الساحة العمومية...).

إنه مجال متعدد الوظائف ينفتح على الحاجيات والأمكنة والمؤسسات. ولكنه أيضًا وسيلة لتحقيق الانتقال وتداول البضائع، المعلومات، القيم، والأشخاص، بنفس القدر الذي يربط فيه ما بين المحلي والشمولي. وبصورة عامة، يعبر هذا المجال عن ديناميكية اللقاء والانتقال والتفاعل والتداول بين أفراد لا تربطهم رغبة المكوث لفترة طويلة، أو رغبة في التنظيم أو القيام بنشاط مهيكل في حركة اجتماعية واضحة[20].

وبالنظر إلى أهمية هذا المجال في الحياة الحضرية للمدينة التقليدية، يمكن القول، كملاحظة إضافية، إنه يشكل خارجًا (dehors)في نظر ساكني الحومة، وبالتالي يعد رافدًا من روافد الأنشطة الحركية والإيقاعية والجسدية. غير أن هذا الإيقاع (في عبوره أو استقراره المؤقت) يحكمه زمن، زمن طبيعي يتدرج من صعود الشمس إلى غروبها، ويتوافق بوسائل عدة مع تبدل الفصول وتغيرها. أليس ذلك ما حكم الأنشطة والحركة في العالم القروي[21]؟

**ج- مجال المقدس:**

والمقصود به كل ما يجري إدراكه وممارسته أو استبطانه في إطار ديني أو شعائري مقدس. وهو إدراك قائم وموجود في كثير من الجوانب اليومية لأهل الحومة. بل يمكن القول بأن وجود هذا المجال قد ساعد إلى حد كبير في تجديد شروط استمرارية الدين وتجذره، حيث تكاملت خصوصية ووظائف هذا المجال مع تلك التي يؤديها النظام الاجتماعي ككل. فإذا كانت صعوبة الحياة ومشاكلها تدفع بالناس للبحث عن الحلول من خلال وسائط تحظى بالتبجيل والتقديس، فمن الطبيعي أن يكون لهذه الأمكنة أفضلية وامتياز في نظر

[20] حليم بركات : (1985)، ص.283.

[21] Abdelkbir Khatibi : (1993), p.65


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

مستعملها بشكل خاص. كما يبدو منطقيًا أن تصبح وسائل التقديس ومجالاتها عناصر مساهمة في إضفاء طابعي المعقولية والقبول على النظام الاجتماعي.

ينقسم المجال المقدس إلى ثلاثة مستويات ترتبط بالممارسات، الأمكنة، والفاعلين:

- الممارسات والأنشطة: شعائر الزيارة للزاوية أو الضريح أو المسجد إذا كان مشهورًا بصفة ما، التجمع حول الصدقات، طلب الغيث، أو الحضور في الليلة (القرآنية والصوفية).
- الأمكنة: بعض الأمكنة المشهورة بمعجزات حسب الحس الشعبي، وتوجد عن طريق الصدفة في تراب الحومة أو حدودها، وبعض الأمكنة الغامضة (مثل: سيدي المخفي، سيدي المجهول)، أو منبع المياه وظواهر نباتية أو طبيعية.
- الأشخاص: ذوو البركات (أهل الخبزات) والمعروفون بالمجاذيب أو البوهالا، وبعض الأشخاص المهمشين والظرفاء الذين يجمعون في كلامهم وتعاملهم بين الحكمة والزهد والمنطق الشعبي.

تدخل كل هذه الأمور في نطاق عدة المجال المقدس. وهي التي تستجيب للمشاعر الدفينة المرتبطة بالتدين كشعور يبحث عن تعبيراته المورفولوجية في تلك الأماكن (أو حول الأشخاص) التي تحظى باحترامه المفرط. وهكذا تتحول الحومة إلى مجتمع مصغر يعمل على إدماج وضبط كل عناصره المنتمية لمجاله عبر دعمها، توجيهها، وتنشئتها، بالشكل الذي يدعم مقومات النظام الاجتماعي التقليدي ويعمل على استمراره وتوازنه. غير أن الأهم من كل ذلك هو الآليات التي مكنت المجال المقدس من تحقيق هذا التأثير، وهي في التقدير الممكن ثلاثة عناصر:

- القدرة على التعبئة الجماعية: تحريك الجماعة في اتجاه أفضلية مكان ما أو القيم الناتجة عن الاقتراب منه. بمعنى كيف تصبح بعض المجالات مقدسة دون أي اعتبار لحقائقها التاريخية والواقعية، ودون أن نملك حتى الفرصة لمناقشة مصداقية الأمر. وهو ما يفسر فعالية انتقال الأفكار والاعتقادات وانتشارها السريع بين المجموعات والأجيال القاطنة في الحومة.
- المسجد ومكانته المركزية داخل الحومة: يحتل المسجد مكانة مركزية ومهيمنة بالنسبة لباقي العناصر الفاعلة في المجال المقدس. فعلى مستوى الحي، كان المؤمنون يجتمعون في أوقات الصلاة، وكانت صلاة المغرب مفضلة للتبادل، التشاور، والتخطيط. في حين كان "الجامع الكبير" يؤم في صلاة الجمعة سكان مجموعة من الأحياء المتقاربة. حقيقة لا يمكن التغاضي عن التناوب الحاصل بين المسيد، الزاوية، العائلة، والمسجد في عملية التنشئة الاجتماعية داخل الحومة. لكن سرعان ما أصبح المسجد سائداً، بقوة التعامل اليومي المتكرر من جهة، ومن جهة أخرى نتيجة للتفاعل الحاصل بين الخصوصيات المحلية والمجتمع الشامل الذي يربط أهل الحومة بالفضاء الأوسع لما هو وطني وقومي. زيادة على ذلك، شكل المسجد المكان الأكثر مصداقية لنسج العلاقات التآلفية بين ممارسي العبادات على اختلاف انتماءاتهم ومستوياتهم الثقافية والاجتماعية، لكن دون أن يساهم هذا الالتحام العقائدي في خلق أنوية دينية تقوم على إقصاء الفئات المغايرة أو "توصيمها" بشكل مباشر أو غير مباشر (سيختفي هذا النوع من التسامح الديني بعد السبعينيات). ومما لا شك فيه أن تمثل هذا المجال في النهاية


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

خضع لتراتب قيمي دقيق، فكل شيء كان ينتظم حسب القرب أو البعد من المسجد: كتعيين أنشطة الإنتاج والتبادل، تباين أسعار العقارات، وترابط العلاقات الاجتماعية والجوارية[22].

- إسباغ القداسة على الأمكنة: أدى ذلك إلى إتلاف الحدود الممكنة بين القواعد الدينية القائمة على مفهومي الحلال والحرام، والقواعد الاجتماعية المرتبطة بقضية العيب والحشومة وما إلى ذلك. في هذا الإطار، يمكن الإشارة إلى بعض الارتباطات الغريبة، مثل تقديس الكتابة وتقديس الخبز. فاللغة العربية مقدسة، ولا يجوز الدوس بالأقدام على أي كتابة بهذه اللغة. وكلما عُثر على نص مكتوب بالعربية ومرمي في جنبات الدرب، يُحمل ليُخفى في بعض الأماكن المحفوظة أو ثنايا الأبواب القديمة. وكذلك الأمر بالنسبة لقطع الخبز. طبعا، لا يمكن لمجتمع يقوم على الثقافة الشفوية ويعاني من مآسي الجوع وقلة اليد سوى احترام هذين العنصرين. الغموض الحاصل بين الديني والعادة هو ما يمنح قوة حقيقية لمسألة الضبط الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية التي تتوزع مصادرها بين ما هو إلهي وما هو إنساني اجتماعي. بل أحيانًا يتخذ الأخير طابعًا دينيًا، حتى ولو كان عرفًا أو عادة يمكن التغاضي عنها.

**مجال اكتساب المهارات:**

لقد أثبتت نظريات التعلم الاجتماعي تنوع عناصر هذا المجال؛ فللآباء، والمدرسين، والأصدقاء، ووسائل الإعلام، وسائر عوامل التنشئة الاجتماعية الأخرى، دور أساسي في تحديد القيم والمعايير واكتساب المهارات. والجدير بالذكر أن هذه المهارات، بتعدد مصادرها، تعد أساسية فيما يُعرف بالإنسية (Socialité) أو المخالطة الاجتماعية، وإقرار التضامن القاعدي بين الأفراد والجماعات. بل يمكن القول بأنها تمكن أفراد الحومة من الاندماج وتحقيق التفاعل الاجتماعي، إضافة إلى اعتماد الأفراد بعضهم على بعض في إطار يسمح لهم بالتواصل والتفاوض فيما بينهم. وهي مهارات لا تتوقف في سن الطفولة فحسب، بل تلازم الإنسان طيلة حياته. وعلى العموم، تتمثل هذه المهارات في المجالات التالية:

أ- المجال التعليمي:

المعني أساسًا بتنمية قدرات التفكير والحفظ والتلقين (المسيد، الجامع، الزاوية، الكتّاب، والمدرسة لاحقًا). توفرت كل الحومات على مجالات تعليمية، بل يمكن اعتبار أن الشخصية الطوبونومية للحومة لا تكتمل إلا بوجود مثل هذه المرافق. وقد كان اسم المسيد أو الجامع، والزوايا غالبًا ما يُقرن باسم الحومة. كما كانت الحومات تتنافس فيما بينها من أجل توظيف فقيه كبير أو ذو صيت معروف على مستوى علمه ومعرفته، بما يضفي على ساكنيها نوعًا من الأسبقية والامتياز في نظر الساكنة الأخرى.

[22] محمد الناصري: 1999، ص, 84


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

ب- المجال الترفيهي:

إذا كان اللعب، بما يحمله من معانٍ سوسيولوجية وأنثروبولوجية، هو المجسد بامتياز لهذا المجال، فإن عناصره المتجلية في قيم الصراع والمنافسة والقدرة على اتخاذ القرار وإتقان المحاكاة ونشوة الانتصار، كلها قيم تدفع حتمًا إلى استكمال بناء الشخصية الاجتماعية التي يفترض استبطانها لهذه القيم كي تصبح في مستوى الاندماج الذي يتطلبه الكيان الاجتماعي الشامل.

الأعياد، والمواسم، والمناسبات السعيدة كلها فرص للترفيه والتعبير عن معالم الانتماء الاجتماعي للساكنة. المباريات بين المجموعات، والذهاب جماعة إلى حمام الدرب، والتحلق حول مضحكي الحومة القارين والعابرين، كلها لحظات عبرت فيها مختلف الأعمار والفئات عن استرخائها ولهوها وتطور شخصيتها.

ج- المجال الجنسي:

لا شك أن التقارب السكني والاستغلال الجماعي لهذا السكن قد يمنع أو يحول دون إرساء العناصر الضرورية لتحقيق ما يُعرف بالمجال الحميمي المستقل. ومن المفترض في هذه الحالة أن تتقلص مساحة الحرية الجنسية بأشكالها وأنواعها، نتيجة، بطبيعة الحال، لحرص الساكنة على احترام الحدود والحواجز بين مجالات وسلوكيات تمثل في مضمونها أهمية بالغة في ضبط توازن المجتمع واستمراريته، كالحدود بين المجال الذكوري والمجال النسائي، والحرص المتمادي على التفريق بينهما حتى في المناسبات السعيدة أو غيرها. ومع ذلك، ومن منطلق الذكاء الاجتماعي المبدع للعديد من السلوكيات المتحايلة على ضغط المراقبة الجمعية، تم اختراق هذا الفصل بأشكال عديدة ارتبطت بمجالات وسلوكيات وألفاظ ومخيلة، يمكن الإشارة إلى بعضها:

د- الحمام التقليدي:

يُعتبر من المرافق الأساسية داخل الحومة التي لعبت أدوارًا مهمة في التنشئة الجنسية بمعناها الشامل. لقد اختلفت وظائفه بين النظافة (بالمفهوم الاجتماعي) والطهارة الدينية والعناية الجسدية وإقرار التواصل بين الناس. لكنه يُعتبر أيضًا مجالًا لاستعراض الجسد بتفاصيله ومكوناته، بقوته وضعفه، مع الإدراك الممكن لحيثيات العلاقات الخفية بين الجسدي والجنسي في إطار يتغذى من مجموع الاستيهامات والتهيؤات التي تُبنى من طرف الأفراد حول هذه العلاقة.

هـ- المزاح، السخرية، والنكتة:

وهي وسائل للتحايل على قوة "القاعدة" من أجل تحقيق السعادة الفردية، خاصة في المجال الإيروتيكي. لكنها أيضًا سعي حثيث لاكتساب معلومات جنسية تُغلفها مواقف هزلية ومضحكة. لقد فطن جون دوفينيو (J. Duvignaud) لأهمية هذه العناصر، معتبرًا إياها بمثابة حقل للتجارب مجرد من أي وظيفة أو أي غائية داخل النظام الاجتماعي المتطور.


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

و- الكتابات الحائطية:

وهي وسائط تعبيرية وتعليمية تحمل في طياتها شحنات عاطفية وجنسية كبيرة. ومما لا شك فيه أن الرسومات المرافقة لها تفصح بشكل غير مباشر عن طبيعة التنشئة الجنسية، التي تصاغ بكيفيات متباينة خارج المصادرة الأخلاقية والدينية للتعبيرات الجنسية داخل الحومة.

وفي غالب الأحوال، اعتُبرت الكتابات الحائطية كشكل من أشكال البوح بمشاعر الحب أو الكراهية تجاه الجنس الآخر، خاصة عندما تكون وسائل اللقاء والتواصل بينهما شبه منعدمة.

ز- دور الدعارة، خادمات المنازل، والفئات الشاذة:

عناصر أخرى ساهمت، حسب موقعها، بشكل إرادي واضطراري، في التنشئة الجنسية التي امتزجت فيها الرغبة العارمة بالخوف الدفين، والتعبير عن الفحولة بالإحساس بالذنب. لقد كانت الدعارة محرمة شرعًا وقانونًا، ومع ذلك كان هناك نوع من التغاضي المحدود، يقف عند عتبة التلبس في حال حدوثه. أما مكانها فيتعين خارج المجالات السكنية للعائلات في الطرف القصي من الحومة (على أعين الجميع). لقد اعتُبرت هذه الدور بمثابة الجسر الخفي الذي ينقل الأفراد من عمر الطفولة إلى عالم الرجال والبالغين. بينما شكلت نساؤه فئة اجتماعية مطبوعة برؤى متنافرة من طرف الساكنة، على الرغم من إجماع الحي على استهجانها ونبذها.

ص- علاقة الراشدين بالصغار:

إذا كانت شخصية الطفل تنمو وتتكون بفعل ما يلاحظه ويسمعه ويراه من جانب البالغين، فإن هؤلاء يلعبون بالتأكيد أدوارًا مهمة في عملية نقل الخبرات والمهارات الجنسية والعاطفية والأخلاقية إلى من هم دونهم سنًا. وبطبيعة الحال، عرفت كل الحومات الاختلاط العمري المقلق دومًا للأسر والعائلات (خوفًا بالدرجة الأولى من الاستغلال الجنسي). إلا أن العلاقة بين الفئتين كانت مهمة جدًا في مسألة خلق "النموذج الاجتماعي"، أو ما يُعرف الآن في علوم التربية بـ"النظير"، والذي قد يكون تأثيره قويًا على شخصية الطفل.

إن ما يهمنا من خلال هذه الأمثلة المحدودة (والتي تحتاج إلى شروحات وتوضيحات)، هو إبراز الدور الاجتماعي للمجال ليس باعتباره تشكيلًا ماديًا ثابتًا، ولكن كمعطى تتحرك في إطاره الممارسات والسلوكيات والظواهر الفردية والجماعية على السواء. كما تقتضي عملية اكتشافها غوصًا حقيقيًا في المنطق الخفي الذي يضبط هذه العلاقة في جوانبها المرموزة أو غير الواضحة؛ أي تلك المتعلقة بالبنية الفوقية الرمزية، والمعبرة عن أحلام الناس ومشاريعهم ورغباتهم سواء في الحفاظ على المجال نفسه أو العمل على تغييره[23].

[23] Jean Duvignaud : 1980, p. 28


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

**القيم الناشئة عن التفاعل بين المجال والشخصية:**

في إطار السعي لتحقيق الإدراك النسبي لأهمية المقاربة المجالية، يمكننا طرح التساؤلات التالية: كيف تمكنت هذه المجالات، على اختلاف وظائفها، من المساهمة في بناء ما يسمى بوحدة الأطر المرجعية لساكني الحومة وتشابه حقل وعيهم؟ هل الوحدة بينهم تعني توافقًا مطلقًا وانسجامًا كبيرًا بين الساكنة، أم هي لحظة جدلية يتنازعها القرب والبعد، والمساندة والإقصاء في نفس الوقت؟ إلى أي مدى يمكن الاعتراف، ضمن هذه الشروط، بوجود ثقافة حضرية أو "تمدنية" تتميز بمكوناتها عن الثقافة القروية[24]؟

من الصعب نكران التأثير الذي مارسته مجموعة من القيم، المنبعثة أصلاً من خصوصية المكان، على مجموع علاقاتنا ومشاعرنا ومعتقداتنا تجاه الحومة، والتي ظلت ترافقنا في مختلف أطوار حياتنا. لقد لعبت القيم التي أشرنا إليها أدوارًا بالغة الأهمية في تركيز مشاعر الاعتزاز بالانتماء إلى الحومات، وخلق نوع من الكبرياء والتعالي، كلما كانت هذه الحومة أو تلك مشهورة بطابع محلي معين. ولعل أهمها، على سبيل المثال وليس الحصر، هي التالية:

**- عشق المكان:**

إن العلاقة المتأسسة في خضم امتلاك المكان والإقامة به لا تقتصر على أشكال الاستقرار أو الترحل، وإنما تحمل في طياتها شحنات عاطفية قوية تعكس، في النهاية، تمثلنا للمكان والإحساس الجميل الذي يمتلكنا حين لقائه. وهكذا تبدو مكونات الحومة، بسكنها وأزقتها وأبوابها ومراتعها ومرافقها –ذاكرة مجالية– تحيل الأفراد على ماضٍ يرتبط بأحداث معينة وبانفعالات خاصة[25].

ونتيجة للانصهار الحاصل بين الزمني والمجالي، بين التاريخي والاجتماعي، يصبح المكان أكثر انغراسًا في وعي الأفراد المقيمين به، لأن اللقاء هو لقاء بالجذور، بالتاريخ الجماعي المشترك، وبالثقافة التي تجعل من العودة الدائمة أمرًا يترسخ في طبوغرافية المدينة التقليدية بشكل عام.

إن "المكان" في الحومة أو الدرب يمثل الحنين الدائم إلى الصرخة الأولى، إلى الأسرة الممتدة، إلى الشغب الجميل، إلى العشرة القوية، وإلى الحب الأول... وإلى كل من ساهم في بناء الشخصية الاجتماعية[26]. ولعل اجتماع هذه العناصر هو ما يفسر، إلى حد ما، ضعف الحركية السكنية داخل المدن التقليدية، والميل الظاهر للإقامة الدائمة لساكنيها في نفس الحومات. ولعل اشتداد الرغبة في التشبث بالمكان هو التعبير الواضح عن الطاقة الإيجابية المكتسبة من خلال العلاقة القوية التي تنجم عن الإقامة به. بالإضافة إلى ذلك، للمكان وظيفة أخرى؛ فبقدر ما يعمل على تحديد الذاكرة والهوية، بقدر ما يؤسس للتفاوت الاجتماعي بين الأفراد. والقيمة

[24] محمد الناصري: 1996

[25] Maffesoli Michel: (1985) p. 186

[26] أليس دلك ما عبر عنه الشاعر قديما بقوله: **نقل فؤادك ما شئت من الهوى فما الحب إلا للحبيب الأول**
**كم منزل في الأرض يهواه الفتى و حنينه دوما لأول منزل**


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

المحققة للاختلاف بين الناس لا تنحصر في المستوى المعيشي، ولا في السلوكات المظهرية، ولا في الدين أو العرق فحسب، **ولكن بأقدمية الاستقرار أو حداثتها داخل الحومة**[27].

والخلاصة أن الاستقرار داخل الحومة يكسب الأفراد وعيًا مزدوجًا: يتجلى، من جهة، في انشدادهم للمكان وعشقهم له، ومن جهة أخرى، في حرصهم على استمرارية الماضي الذي يخلد هذا المكان ضد الموت والنسيان.

**- ثقل المراقبة الجمعية و انتقال القيم:**

لا تسمح الحومة، بتخطيطها المعروف وبأزقتها الضيقة والقصيرة، بحرية واستقلالية الأنشطة الممارسة، وبالتالي، تبقى كل الحركات تحت مراقبة الجيران والمعارف وأهل الحومة عامة. كما أن صلاحية التربية تعود لمختلف الفاعلين المتوفرين على الصفة، حتى لو تم الاعتراف باقتصارها على الوالدين فحسب. هذا الحصار الذي تفرضه الجماعة على الأنشطة السلوكية لمن هم دون سنها يعبر، في النهاية، عن حرصها على تكييف السلوكات مع المعايير والقيم والعادات المتبناة من طرف الجماعة، وبالتالي يسهل انقيادها وتعاملها مع مكونات هذه المنظومة القيمية التقليدية. طبعًا، المراقبة ليست ذات طابع مؤسسي أو تعاقدي، لكنها تتم بكيفية تلقائية وطوعية توجهها إرادة ورغبة الحفاظ على التوازنات القائمة داخل المجتمع المحلي.

إن ثقل المراقبة وضغطها يسهلان عملية نقل القيم بسلاسة بين الأجيال، خاصة وأن عملية الخروج عن سياق المراقبة الوالدية أو بالنسبة للأشخاص الكبار تبدو محفوفة بالكثير من الحكايات المخيفة. لذلك، تعمل على تحقيق أمرين متلازمين: فمن جهة، تساهم في إخضاع الفرد وكسر شوكة استقلاليته، ومن جهة أخرى، تحقق انتقال القيم بين الأجيال بكيفية ناجحة.

على أية حال، لقد أثبتت هذه المراقبة أن المكان يلعب دورًا إضافيًا في تقوية الارتباطات الأفقية والعمودية بين الأفراد، عبر ضبطه وتكييفه للحركيات اليومية في علاقاتها الزمانية والمكانية، والقائمة أصلًا على إيقاع التبادل الرمزي والثقافي المعمم على مساحات جيلية مختلفة ومتباينة.

**- اللعب و اكتساب المهارات والقيم الاجتماعية:**

بصرف النظر عن التعريفات المختلفة بشأن اللعب ومفاهيمه، خاصة لدى M. Wallon ، Huizinga، Caillois، والمركزة على استقلاليته وعدم خضوعه لأية غائية محددة، يمكن القول إن اللعب يحتل وظائف هامة في عالم الطفولة والمراهقة، أهمها وظيفة الترفيه ووظيفة الاستكشاف والتجريب والمران على تنمية المهارات واكتساب القيم. وبذلك يعبر معنى اللعب عن ثقافة المجتمع ومستوى تقدمه، وفي نفس الآن، يعتبر وسيطًا لنقل هذه الثقافة إلى الجيل الجديد. لقد اعتبرت السوسيولوجيا أن اللعب والارتجال يشكلان، داخل المجتمعات الأقل وضوحًا (المشفرة)، جمالية رائعة. وللاستمرار في اللعب، وبالأخص لتحقيق الغلبة، لا بد من كسب عبقرية في

[27] Nathalie Heinich: ( 1997), p.78


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

العلاقات الاجتماعية. أي لكي تلعب في هذه المجتمعات ينبغي، بدون شك، أن تكون أكثر دهاءً[28]. ولذلك، يشكل اللعب وسيلة مهمة لاكتساب الهوية الاجتماعية بما تمثله من القيم الحياتية الأساسية، وبما تعبر عنه من قضايا سلوكية كتبادل العنف، وأشكال التفاعلات اللغوية، والإنتاج الرمزي لما يمكن تسميته بثقافة الدرب أو الحومة.

يفترض اللعب أيضًا مجموعة من التوافقات والتنازلات، والامتثال للعديد من القواعد التي تخلقها المجموعة. هذه القواعد تسمح لهم بضبط علاقاتهم، وهي في الغالب مكتسبة من اليافعين. لكن بممارستها يتأتى للمجموعة فرصة اختبارها وتجريبها، والتأكد من صلاحيتها ومنفعتها المباشرة، وبالتالي امتلاك كل القيم التي تسمح لهم بإقامة علاقات الصداقة وبناء المجموعة[29]. ومما لا ريب فيه أن الدارس للتاريخ الاجتماعي للمغرب سيعثر حتمًا على مثل هذا التوافق ما بين البنيات الاجتماعية والثقافية، والبنيات الترويحية والترفيهية. هذا لا يعني أن اللعب كان متاحًا ومتوفرًا بأدواته ووسائله بشكل مريح للأطفال واليافعين. قلة الإمكانيات، ضيق المساحة المتاحة للعب، انزعاج الساكنة ومصادرتها لبعض الوسائل المتاحة لهذا الغرض (كرة القدم، بعض الأدوات الموسيقية...) قد يحد من اتساع رقعة اللعب وامتدادها.

لكن في الأخير، يتحدى اللعب، في الغالب، بنيات المراقبة والمنع، يتحايل على قوانينها ويخترق قواعدها الصارمة، ليعيد تشكيل العالم الاجتماعي بلغة أخرى وأدوار مغايرة[30]. وعلى أساس هذا الواقع الموسوم بالنذرة، تتحول الساحات وبعض المنازل المهجورة، ومداخل البنايات والحدائق العمومية القريبة من منطقة السكن، ليس فقط إلى عناصر مكونة للمشهد العمراني، بل إلى أمكنة للنشاط الحضري، ووسائل لتمضية الوقت، وللتنشئة الاجتماعية، وللعنف والمخاطرة وإثبات الذات، وأيضًا أمكنة لاختبار السلامة الجسدية والنفسية، ومجال للممارسات الإبداعية والرياضية. ما هي خصوصية اللعب داخل الحومة؟ وأي قيم يعكسها في ممارساته المختلفة؟

**أ- لعب بدون ألعاب:**

لم تكن الألعاب المصنوعة موجودة بكثرة في الأوساط الشعبية المعروفة. وقد كان الصغار عادة يصنعون ألعابهم بأيديهم من عناصر البيئة التي يعيشون فيها. وقد صنعت هذه الألعاب في محاولات مبدعة ودؤوبة من الصغار لتقليد حياة الكبار. وخلال ذلك، كان الطفل يستدعي كل طاقاته التخيلية وتقاليده، لذاكرة المجتمع وتنظيماته الثقافية. وعلى العموم، انقسم اللعب إلى نوعين:

- الألعاب الحرة التي ابتدعها الأطفال من خيالهم الفردي الخصب.
- الألعاب الملقنة أو المكتسبة والمعبرة عن بعض الممارسات الاجتماعية لثقافة معينة.

[28] Pierre Bourdieu :( 1978), p. 99

[29] Acheroy Christine :(2018), pp.2-8

[30] Sijielmassi Mohamed : (1994)? p. 84


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

إن اللعب لا يمثل، في حد ذاته، نشاطًا منزوعًا من أي غائية وغير منتج تمامًا لأية قيم، بل هو شرط أساسي لبناء الشخصية والمساهمة في تطويرها بكيفية تسهل اندماجها داخل المجتمع بشكل إيجابي.

**ب- التعايش الثقافي والاجتماعي:**

لقد عبرت أشكال اللعب ووسائله عن تجاور ثقافي بين ذاكرتين (ذاكرة الأجنبي الإسباني وذاكرة المغربي بروافدها اليهودية والأمازيغية والعربية والأندلسية). كان التواصل بينهما يحدث بعفوية وتلقائية، عن طريق الاقتباس والتماهي، ولم يحدث مرة أن تعامل أطفال الحومة مع التقسيم الإثني أو الحضاري أو العقائدي في لعبهم. وهذا الاستنتاج أكده دانييل ريفي في معرض كلامه عن مصادر التآلف الاجتماعي بين شباب المدينة ورجالها[31].

على العموم، كان التركيز يتم على مكونات اللعب ووظائفه، كالحيلة والمواقف المضحكة والبطولة والشجاعة والحظ... أكثر من تركيزه على مصادر اللعب وأصوله. لقد كان التجاور واضحًا بين لعب القرية والمدينة، ولكنه تجاور يخضع، في أساسه، للتمثل الخاص بصورة المدينة والقرية، وهي صورة تخترقها التناقضات والمواجهات الضمنية التي تحكم علاقة المديني بالقروي. يتحول فيها هذا الأخير موضوعًا للمواقف الهزلية (العروبي والمديني) والموحية بالتخلف والأمية وقلة الذكاء (عدم إدراكه للتخلف)[32].

تجاور قيمي آخر عبر عنه اللعب من خلال مدحه وتشجيعه لقيم تكون أحيانًا شبه متناقضة. فهو يمجد الذكاء والحيلة بنفس القدر الذي يمدح فيه السذاجة والنية. وحتى في حالة استحسانه للنظام والسلطة، فإنه مع ذلك ينظر بإعجاب للمتمردين الرافضين لقوانين هذه السلطة (لعبة الشرطي واللص). وهكذا يفصح التجاور والتعايش عن تعقيدات المنطق القيمي للعب، وعدم خضوعه للمقتضيات الأخلاقية والسلوكية المرتبطة بتطور الوظائف والبنيات والمؤسسات[33].

**ج- القيم الجماعية:**

من الواضح أن اللعب يمارس بشكل فردي، ولكنه كان يتم فقط في حالة الاعتماد على الوسيط، أي على اللعبة. وفيما عدا ذلك، كانت كل أشكاله جماعية، سواء من حيث عددها أو من حيث الكيفية التي تؤدى بها. فقيمة الفرد في اللعب تتأكد بقوة حينما يحرص على الالتزام بقيم الجماعة والمحافظة عليها بكل تفانٍ وتضحية. أليس ذلك ما يربي لدينا القناعة بأهمية رأي الآخرين في سلوكنا وتصرفاتنا، أكثر من رأينا الشخصي في كل ذلك؟ أم أن الأمر يفسر، حسب الفرنسيLouis Brunot ، بكون القيم الجماعية التي عبر عنها اللعب، كانت وسيلة من وسائل التعود على الأخلاق المستجيبة لحاجيات ومشاعر جماعية قوية وصلبة[34]؟

[31] Daniel Rivet : 2002, pp. 35-38

[32] Placide Rimbaud ,1969, p. 35

[33] Hoggart R : 1970

[34] Louis Brunot : 1942, p. 271


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

ليس من الممكن اكتشاف كل القيم الاجتماعية التي رسخها فضاء الحومة التقليدية، لكن إذا اعتبرنا المجال، بمعناه العام، هو مكان لبناء التصورات والتمثلات، فإن هذه الأخيرة لا يمكنها أن تكون بعيدة عن التأثيرات المباشرة لهذا المجال.

إن ارتباط المدينة بالحومة وبالمنزل وبالعادات، يقوم حتمًا حول هذه الخاصية المقدسة، أي تلك التي تخلق الشعور القوي بالعيش سويا، والعمل على خلق نموذج اجتماعي مشترك. لقد أكد Hoggart R. أن البيئة الاجتماعية تحمل ملامح الأزقة التي تكونها وتحضنها[35].

**د- السطح مجالًا أنثويًا بامتياز:**

يبدو أن السطوح في المدينة التقليدية قد أفرزت نوعًا من التمييز المجالي القائم على أساس النوع. ولكن بالنظر إلى استعمالاته المختلفة من طرف الساكنة، نكشف عن الاستراتيجيات الكامنة في العلاقات التي أقامها الفاعلون مع هذا المجال. يتمثل السطح، هذا الحيز المتخلى عنه للنساء بشكل خاص، كشكل من أشكال تعويض النساء عن حرية الحركة والظهور المفقودتين في الحومة، التي هي، أساسًا، مجال ذكوري بالدرجة الأولى. ولذلك كان محرما على الرجال الصعود إلى السطح لأنه يعتبر أمرًا معيبا ومزعجا بالنسبة للمرأة والفتيات أيضًا. وقد يشبه الرجل، في حالة ارتياده للمكان، بالمرأة، الأمر المخيف جدًا بالنسبة للذكورة المعتزة بفحولتها.

لقد كان السطح مجالًا وظيفيًا، يحقق العديد من الخدمات بالنسبة لمستعمليه من الإناث، مكرسًا العلاقات التواصلية والتضامنية بين النساء، ومحققًا التماسك الاجتماعي بين الساكنة في إطار من التفاعل الإيجابي نسبيًا. لكنه أيضًا شكّل، بجانب النافذة والشرفة، وسائل جد مهمة في تحقيق المشاهدة الواسعة لمجالات أوسع وأرحب من البيت الداخلي.

لقد كانت المرأة حريصة، في السطح، على الاطلاع من فوق على كل الحركات والأنشطة الجارية في الدرب. فرؤيتها غوصٌ فيما هو متاح، حتى وإن كانت غير قادرة على نقله لغيرها، لكي لا يتحول الأمر إلى نوع من التلصص. إنه المكان المفضل للتواصل المكثف، للاحتفال والتلاقي، للنقاش وتداول كل ما يتعلق بأخبار أهل الحي وما يفعلونه. وبالتالي، هو من بين الجسور التي تربط النساء بالعالم الخارجي.

وعلى أساس تأكيد نتائج التلازم القوي بين المجال والتنشئة، يمكن الإشارة إلى قضيتين بارزتين في هذا الإطار:

**1 -دعم الروابط الأسرية وشبكة الأقارب:**

من المؤشرات الدالة على تماسك النسق الأسري وصلابته: التجاور والتقارب السكني بين قاطني المجال التقليدي، مع وجود العديد من المناسبات الدينية والاجتماعية والترفيهية التي تعمق التقارب عبر الزيارات المتبادلة والمتكررة. بالإضافة إلى هذا المعطى الاجتماعي، وفي إطار الثقافة الفرعية التي تنتجها "الحومة"، تتربع العائلة على رأس الأولويات التي يجب احترامها وتبجيلها. ولا شك أن

[35] Ibid, p. 96


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

المسّ بأحد أفرادها، خاصة (الأم والأب)، قد يكون مثار صراع عنيف ودامٍ أحيانًا بين الأفراد. كما أن الأجداد والجدات، في علاقتهم بالأبناء والأحفاد، يلعبون دورًا تكميليًا في الحفاظ على إعادة إنتاج نفس القيم المنبثقة عن الأسرة كنظام تربوي وتنشيئي. هذا في الوقت الذي لعب فيه الزواج بين الأقارب –رغم سلبيته أحيانًا– دورًا كبيرًا في دعم هذه الوحدة الأسرية وتوسيع حدودها.

**2 -القدرة على تدبير الاختلاف واستبطان العنف:**

لا يمكن القول –وبدون تحفظ– بأن "الحومة" كيان منسجم متناغم وخالٍ من التناقضات الاجتماعية، لكنها تحاول، رغم ذلك، وفي إطار تحركها كهوية جماعية، تدبير هذه التناقضات بكيفية تجعلها في الغالب في مأمن من التدمير الذاتي أو الداخلي. وللمزيد من التوضيح، الصراع الاجتماعي الذي ميّز المدن التقليدية لا يرقى إلى مستوى التناحر الطبقي(Antagonisme de classes) ، حتى ولو اتخذ أحيانًا بعضًا من أشكاله. ولهذا، بُني التراتب الاجتماعي على أساس مجالي ومهني أكثر من الأساس المادي أو الملكية الاقتصادية. وهذا ما نستشفه من التقسيم الذي أنجزه روجي لوتورنو (Roger Le Tourneau) حول "حومات" مدينة فاس قبل الحماية[36].

وبالتالي، توزعت الخطاطة التراتبية بشكل عام على النحو التالي:

أ. ولاد البلاد: المقصود الفئات المستقرة في مختلف أنحاء المدينة لفترات تاريخية طويلة، أو المقرونة بنشأة المدينة أو بعض أحداثها التي ساهمت في تأسيسها. تقع هذه الفئة في قمة الهرم الاجتماعي، حتى في حالة قلة إمكانياتها الاقتصادية، لأنها قادرة على تعويض كل ذلك برأسمالها الرمزي أو التاريخي، وهو ما يمنحها القدرة على تحديد أوضاع الفئات الأخرى، بما في ذلك من إقصاء أو إدماج. الميزة الأكثر أهمية هي تلك المعبرة عن انصهار وانسجام هذه الفئة ضمن ثقافة مدينية واضحة. لكن هذه الثقافة، الموحية بالاندماج، هي الأكثر اغتيابًا وتجريحًا ووصمًا لأفراد الجماعات الأقل اندماجًا. فهي وسيلة لبناء الإدماج (فئة ولاد البلاد) ونتيجة لتحقيق الإقصاء والتهميش (بالنسبة لباقي الفئات الدنيا)[37].

ب. ولاد الحومة:

المجموعات السكنية ذات الاستقرار الطويل بـ"الحومة" فقط (مبلدين)، أي أولئك المنحدرين من أصول قروية أو غيرها، والذين استطاعوا من خلال أنشطتهم التجارية أو المهنية الاندماج والاختلاط مع الفئة الأولى.

ت. البرانيين: وهي كلمة تركية تعني الإقامة خارج أسوار المدينة. تشير غالبًا إلى غرابة الأصل أو على الأقل غموضه بالنسبة للفئتين السابقتين، بحيث لا توجد فرص كثيرة لاندماجها بشكل كامل في النسيج الحضري للمدينة التقليدية. لقد وصف

[36] اعتمد التقسيم التالي:حومة الحشود و المهاجرين التي تشمل جل المهن الشعبية ،كالحدادين و أصحاب الفنادق المقاهي و الحانات ،أصحاب النوايل و الطحانين و الطرافين ...ألخ.حومة البورجوازيين:الصناع المترفين ،تجار القيسارية،،العلماء ،الشرفاء.حومة الأرستقراطيين:التجار الكبار،ملاك الأراضي، الموظفون المخزنيون. Roger Letourneau (1949), p. 220

[37] Nathalie Heinich :( 1997), p.77


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

الأديب المرحوم محمد الصباغ حالة هذه الفئة في مدينة تقليدية صغيرة: "**حواجز من الحذر، والاحتياط، والتحفظ، تقف في وجه الطارئ، تتصده، تبعده عن الاندماج في جو المدينة وسكانها. تحكم عليه بالغربة النافرة.**[38]"

ث. المجليين: تتكون من الفئات الواطئة الممتهنة للأنشطة الخسيسة أو الممثلة للعديد من الأمراض الاجتماعية الخطيرة (كالانحراف، التسول، الجنون، والعنف ضد الأشخاص أو الممتلكات).

بالطبع، عرفت "الحومة" والمدينة عمومًا التفاوت الاجتماعي بين الناس، كما عرفت الانحراف بجميع أشكاله المتداولة آنذاك (كالاغتصاب، الشذوذ الجنسي، السرقة، المواجهات العنيفة بين الأفراد...)، إلا أنها ظلت محاصرة ومقتصرة على فئات معروفة بكونها إما مهاجرة أو "برانية". وكان تجريمها يأخذ في الغالب طابعًا عرفيًا أكثر منه قانونيًا أو شرعيًا. دون نسيان وجود بعض الفئات التي كانت تقوم بوظيفة التحكيم وحل المنازعات بين الناس، بطرق تقلل من اللجوء إلى المؤسسات القانونية أو ممثليها. مما يعني أن وجود الصراعات والتناقضات لا ينفي بتاتًا إمكانيات التفاوض المتأصلة في النظام الثقافي لهذا المجال للحفاظ على توازناته.

لكن الأمر الجدير بالاهتمام في هذا المجال هو بروز ظاهرة سوسيولوجية متميزة داخل "الحومة"، والمعروفة أدبيًا بـ"الفتوة". وقد اختلفت تسمياتها في الثقافة الشعبية حسب المناطق بين "الطائفة، العزوة، والدري...". وهي ظاهرة تذكرنا غالبًا بالعصر الفروسي في الزمن العربي القديم. لكن اشتدادها في ظرف تاريخي محدد (بين الخمسينيات والستينيات) يعبر عن افتقاد السكان للقوة الزجرية التي تمكنهم من الإحساس بالحماية ضد اعتداءات الغرباء، وهو ما كان يقوم به "الفتى" تجاه أهل "الحومة" وساكنيها.

إن ما يزيدنا اقتناعًا بمحدودية هذا العنف المديني، كونه لا يتأسس في معظمه على الإبادة والتنكيل بأفراد أبرياء، ولا على تقطيع أوصالهم وتشويه جثثهم، بل يتوجه في الغالب إلى الفئات المتنافسة حول هذه الزعامة، وأحيانًا إلى رموز السلطة المخزنية المتعسفة. ويبقى على البحث العلمي حول تاريخ العنف بالمدينة المغربية إثبات عكس هذه الفرضية أو تأكيدها[39].

لقد كان تأثير هذه الممارسات مهمًا جدًا على استبطان المشاعر، أي القدرة على منع التناقضات من الوصول إلى حدها الأقصى، وبالتالي انفجارها. ملاحظة لا تقل أهمية عما ذكرناه، تتعلق بالجانب النفسي الذي يشعر به الإنسان في حالة وعيه بالحرمان والفاقة عند احتكاكه بمن هم في منأى عن ذلك. ولتفادي هذا النوع من الإحباط، كانت الساكنة في المدن التقليدية تميل في معظمها إلى "ستر" وسائل العيش والأكل عن بعضها البعض، مما يقلل من الإحساس بالحسرة والحرمان لدى الفئات الأخرى التي قد تضيق بها إمكانيات العيش.

في هذا السياق، نورد شهادة محمد الصباغ في حكايته عن المدينة التقليدية: "جلبابته دائمًا تغطي القفة، وتحجب ما بداخلها من أرزاق الله التي يجب أن تبقى دائمًا مستورة عن الأعين. تلك عادة ورثها عن آبائه وأجداده.[40]"

[38] محمد الصباغ: تطوان تحكي، دار الثقافة، 1979، ص. 39

[39] محمد المرجان: 2004، ص ص. 54-55

[40] محمد الصباغ نفس المرجع، ص.25


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

كما لعبت الواجهات السكنية المتشابهة داخل "الحومة" دورًا كبيرًا في تبديد مشاعر الحسرة والإحساس بالدونية فيما بين الفقراء والأغنياء. علاوة على ذلك، لم تمنع مشاعر الحقد والحسد والكراهية الناتجة عن صراعات الأفراد والتنافس فيما بينهم من وجود اللقاءات وتبادل التحايا. وقد تنهار تلك المشاعر تحت تأثير التدخلات المسالمة والداعية للصلح والسلام (العداوة ثابتة والصواب يكون). بمعنى أوضح، الصراعات والتناقضات لم تسهم في تنمية وحشية وكآبة الأفراد كمشاعر وممارسات مفككة لإنسانيتهم، بل ساهمت في إقرار علاقات غنية، صراعية وديناميكية في آنٍ واحد، يستثمر الفرد خلالها كل قدراته التفاوضية وإمكانياته في استبطان العنف أو حتى مصادرته أحيانًا.

**المدينة الحديثة والتغيرات المجالية بالمغرب**

لا يجادل أحد اليوم في مسألة التزايد العددي لسكان المدن بالمغرب (16.5 مليون نسمة حسب إحصاء 2004 من المجموع العام للسكان الذي وصل إلى 29.9 مليون نسمة). أما سنة 2019، فقد وصل عدد المدن إلى 52 مدينة، بلغ عدد سكانها 23,077,900 نسمة، بنسبة شكلت 63.3% من إجمالي السكان بصفة عامة. وإزاء هذه الظاهرة الحضرية المتعاظمة، اختلف العديد من الباحثين حول طبيعة هذه المدن الجديدة، وحول نوعية وحجم القوى الداخلية الفاعلة في عملية تطورها، وكذلك موقعها ودورها في عملية التنمية الحضرية بشكل عام.

والحقيقة أنه لا اعتراض اليوم على جمالية المدينة الجديدة، مساحاتها الواسعة، عماراتها الأنيقة، وفرة تجهيزاتها، صلابة بناها التحتية، وأهمية خدماتها الاجتماعية والاقتصادية والترفيهية. ولكن على قدر استحواذها وشموليتها، تبدو رهيبة ومتوحشة في نفس الآن، لأن علاقاتها بالفرد والجماعة والزمن والثقافة ليست علاقة احتوائية ومتوازنة، بل هي مختلة ومضطربة، لأن الابتعاد عن النموذج الحضري القديم لم يرفق بثقافة مدينية تستوعب ضرورة التوفيق بين المحلي والكوني، بين الأصيل والطارئ.

وعلى هذا الأساس، يبدو الكلام عن الحومة في المدينة الحديثة من باب الحكايات المروية عن التاريخ القديم والبعيد جدًا عن الواقع الحضري الجديد. وحتى في حالة إقرارنا بوجود بعض الحومات داخل هذه المدن، فإن هذه الأخيرة تبدو في الغالب منفصلة عن ماضيها. إنها حومات بدون جذور، تمارس كل وسائل القطع مع التاريخ والذاكرة. وفي الواقع، تعبر هذه التشكيلات الحضرية الجديدة عن رغبة في التغيير قائمة بالدرجة الأولى على مبدأ التشييد والبناء، ولكن يتم ذلك ضمن مجال القطع مع الاستغراق والديمومة، لأن صيرورة اكتمالها تبقى دائمًا في طور الإنجاز، الأمر الذي يحيلها إلى نموذج حضري غير مكتمل وناقص، خصوصًا مع ما يفرضه هذا النموذج من فترات الانتظار، فترات الإنجاز، وفترات التوسع أو التمدد. إنما لو أردنا المقارنة بين الحومات التقليدية ونظيرتها في المدن الحديثة، فسنجد أول مفارقة تطالعنا تتعلق بنظام التراتبات الاجتماعية، والذي أصبح يقوم الآن على معايير مادية (السكن الراقي، السكن المتوسط، السكن الوضيع) ومهنية (سكن الموظفين، سكن العمال والتجار البسطاء) وإثنية (حومة دكالة، حومة الشياظمة،


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

حومة طنجاوة) بدلًا من قيامه على قاعدة التضامنات الثقافية والرمزية والسكنية. مع الإشارة إلى كون التناقضات الاجتماعية والاقتصادية تهيمن على الأشكال الأخرى، خاصة الصراعات الإثنية[41].

أما الرأي الثاني، فيرى بأن المسألة اليوم تتلخص في انفجار المدن، مع تشكل البقايا المسماة بالضواحي والأطراف والهوامش. وهي الظاهرة التي أنتجت فكرًا عمرانيًا يتجه نحو البناء السكني فحسب، وليس إلى غايات تتعدى السكن نحو أهداف أخرى، إنسانية واجتماعية وثقافية، تعمل على تحقيق الرقي والارتقاء. مما يعني أن الحياة العمرانية المعاصرة لا تستجيب للروح التعاونية والجماعية التي طبعت حياة أهل الحومة التقليدية. وحتى في حالة القيام ببناء المجموعات السكنية، فإن الطابع المميز لساكنتها يقوم على التهجين والتنافر والتضارب الحاصل في ثقافتها وأصولها الاجتماعية والإثنية. لقد شمل هذا الانفجار أيضًا مفهوم الزمن، لأن التفاعل الحاصل بين المؤسسات الاجتماعية والإكراهات المهنية والعائلية والمدرسية قد أدى إلى بروز ما يعرف بالوقت الحر. هذا الأخير أصبح بدوره منتجًا لقيم تاريخية تشجع التعبيرات الحرة للذات الفردية، في إطار التنامي المطرد لأوقات الفراغ. وبصيغة أخرى، الانفجار أدى إلى بروز فاعل اجتماعي جديد، اخترق المؤسسات الاجتماعية التقليدية وعمل على تغيير مصادر التنشئة الاجتماعية أو تحريفها عن مسارها الطبيعي[42]. مما ترتب عنه تغير واضح في علاقات الفرد بالمجالات التنشيئية، بما في ذلك الاستعمالات المختلفة للمجال. فباستثناء المسجد، الذي أصبحت له وظائف تعبوية مهمة، لا نكاد نعثر على المجالات المقدسة التي كان الفرد يجد فيها حماية وطمأنينة قل مثيلهما. في حين أصبحت مجالات الراحة والترفيه خارجة عن أية مراقبة اجتماعية ممكنة، مما سمح للفرد باكتساب نوع من الحرية والاستقلالية ونزوع لتحقيق الذات بشكل بارز. الأمر الذي لا يعني غياب المراقبة بكيفية مطلقة، خاصة في التطور الملحوظ لوسائل التواصل الاجتماعي وانتشارها على أكبر نطاق. غير أن هذه المراقبة الافتراضية (الموبايل مثلًا) منحت للأفراد فرصًا أكثر للابتعاد عن المجالات المركزية أو التعامل مع أكثر من مجال، مما يحد من إمكانية التمركز بشكل دائم في نفس المكان.

والحقيقة على أهمية هذه الاستنتاجات، فإنه لا يمكننا إنكار استمرار بعض المجالات التنشيئية داخل الأحياء الجديدة، خاصة اكتساب المهارات واللعب. إلا أنهما ينتجان في النهاية قيمًا تسعى إلى تغيير وتحويل سلطة المؤسسات الاجتماعية التقليدية والحد من وظيفة الضبط التي كانت تؤمنها سابقًا. ألا يمكن اعتبار هذا الأمر من الأسباب المباشرة في ظهور نوع جديد من التنشئة، يمكن أن يكون مؤشرًا ودعامة لتكوين طبقي جديد[43]؟

إن المجال الحضري في هذه الأوضاع يعمل لغاية واحدة: نشر التمدن في كل صيغه، بداية من تطوره الفيزيقي في المجال إلى محاولة تغيير أنماط الاستهلاك والسلوكيات والتطلعات الخاصة بالقرويين الأكثر بعدًا عنه. وعلى هذا الأساس، يكتسب المجال الحضري قوة واستقلالية تمكنه من مواجهة كل العوامل المقاومة لامتداده وتوسعه.

[41] Heddi Echarrif : (1999), p.298

[42] Abdelaziz Ouarti: (1998), pp. 19-50

[43] Bouhdiba Abdelwahab: (1994), p.24


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

لقد خضعت المدينة الجديدة من خلال الحركية السكنية إلى صيرورة استبدالية substitutive مزدوجة:

ففي الوقت الذي امتلأت فيه المدن التقليدية بمجموعات كبيرة من العناصر الوافدة والمهاجرة من كل أنحاء المغرب، إلى درجة لم تعد قادرة على إدماجهم في نسيجها الحضري والاجتماعي، تم انتقال السكان الأصليين لهذه المدن، وتحت ضغط إغراءات المدينة الجديدة للإقامة بها. ساهمت هذه الحركية في إحداث توترات على مستوى الاستقرار والتعايش السكني. فالمهاجرون الجدد (القرويون) لم يقدموا أي إسهامات إيجابية داخل المدينة التقليدية، والثقافة القروية أضرت إلى حد كبير بالنسيج الحضري لهذه المدن. في حين لم يتساوق انتقال السكان القدامى نحو المدن الجديدة بالحرص على توفير التقارب الجغرافي فيما بينهم كجماعة، وعلى استمرارية قيم التضامن التي حكمت تعاملهم المجالي سابقًا.

بمعنى أوضح، لم تحمل الساكنة القروية التي هاجرت للمدينة أي إضافات من أجل تطوير المجال الحضري في اتجاه تمدن أكثر رقيًا من ذي قبل. بل عملت على تعزيز السلوكيات التقليدية والمحافظة وتوسيع قاعدة الثقافة الشعبية الحاملة لمجموعة من القيم المناهضة للتجديد والابتكار والتقدم. في حين تخلت البورجوازية المدينية عن قيمها السالفة لتندمج بشكل شبه كامل في مجالات حديثة البناء، متبنية عوائد البذخ والترف والاستهلاك العصري.

أما لغة التوزيع المجالي بدورها، فقد ارتبطت بقيم ومعايير متباينة مع ما كان رائجًا في المدينة التقليدية. وهكذا تم استبدال مفهوم الحومة بمفهوم العمارة أو الإقامة أو المجموعات السكنية الحاملة لأرقام متفاوتة (1-2-3...) أو مجموعة حروف (ج، ع، ط...) أو أسماء الطبيعة وبعض مكوناتها (نرجس، الأقحوان، السنبلة...) أو دلالات ومعاني دينية (رحمة الله، الغفران، التوبة...) وحتى بعض الأسماء الأجنبية (حي بوركون، إيطاليا، فرنسا...).

ولعل هجانة التسميات وتضاربها راجع إلى كون الإحالات لم تعد مرتبطة بذاكرة معينة، ولم تعد الأحداث التاريخية والوطنية فاعلة ومؤثرة في الوعي المديني. لا شك أن هناك مجموعة من الأحياء تحمل أسماء الشخصيات الوطنية: محمد الخامس، علال الفاسي، عبد الخالق الطريس، الزرقطوني، علال بنعبد الله... لكن دلالات الاسم غير متطابقة –على الأقل في حدود معينة– مع المجال الذي يحملها. وكأن هذه الأحياء تبدو منبثقة بشكل فجائي وبدون مرحلة انتقالية أو تمهيدsans transition ، لأنه لا رباط ولا ارتباط بينها، ولا يشترك ساكنوها في نفس المعاش الجماعي، وربما لا يعتقدون في نفس النماذج والتصورات، وقد لا نعثر حتى على الانسجام في انتماءاتهم الاجتماعية والفكرية.

وعلى العموم، ترتكز القراءة السوسيولوجية لواقع الحومات في المدن الجديدة على ثلاث ملاحظات:

**1- ضمور الجوار والحياة الجماعية:**

قد نعثر في الوصف الذي قدمه بيريكييه سنة 1954 لدرب غلف بالدار البيضاء على شرح وافي لهذه النقطة: "بدأت التغيرات بعد احتكاك الساكنة بالاستعمار الفرنسي، حيث سادت العلاقات الليبرالية وانتفت المشاعر الإثنية، مع تكون طبقة بورجوازية مالية،


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

سعت إلى فرض نمط عيشها داخل الدرب[44]." تبقى هذه الصورة صالحة فيما بعد الاستقلال، مع إضافة عناصر أخرى، من بينها تفكك الحياة الجماعية القائمة سابقًا على التجاوب المتبادل، وأفضلية الجوار على النسب، أو على الأقل بروزه بشكل متساوٍ مع النسب. مما يعني أن الوحدتين الأساسيتين (العائلة والجوار) في الحومة قد خضعا بدورهما للانصهار والتغير، ولم تعد قيمهما سائدة في التنشئة الاجتماعية، أو على الأقل تم تعطيلهما.

لقد أشرنا إلى أهمية الجوار في المدينة التقليدية، واعتبرناه من العناصر المهمة التي أسهمت ونتجت في نفس الوقت عن التوافقات المجالية. غير أن وجوده في المدينة الحديثة لا يستجيب لنفس الوظائف السالفة، وإنما يعمل على تغذية مشاعر الحيطة والحذر والتوجس (التقار)، على الرغم من بعض المواقف الإنسانية الممكنة. يحدث هذا في واقع يشهد كثافة سكانية كبيرة، ومجموعات سكنية تضم عددًا كبيرًا من الجيران. مما يعني أننا أمام ظاهرة جديدة يمكن تسميتها "**جيران بدون جوار**."

هذا الافتراض لا يلغي وجود الرغبة في استمرارية الحياة الجماعية داخل الأحياء الجديدة، وهو ما يتمثل في الممارسات المرتبطة سواء بالعبادات (الصلاة الجماعية، والإقبال الكبير عليها في نوافل رمضان) أو تلك المرتبطة بالتدبير الاقتصادي للأفراد (دارت كأسلوب خالٍ من الفائدة البنكية، المساعدات الفردية أو الجماعية في إطار التضامن المحدود). لكنها تظل على العموم مطبوعة بأهداف نفعية، يكون أساسها الخروج من المآزق الفردية. وبالتالي فهي ظرفية ومؤقتة، تتوقف في الغالب على حجم التوافق والانسجام بين الساكنة. هل يعني ذلك أن الحياة الجماعية في المدن المعاصرة أصبحت مستحيلة؟ أم أنها غير مستجيبة ومتوافقة مع العقلية المغربية الحديثة، كما اعترف بذلك الاستعمار الفرنسي[45]؟

**2- غياب التمدين الاجتماعي:**

لقد ميز ف. كوستللو بين مفهوم التمدين الطبيعي، الذي يعني مواقع عيش وإقامة الأفراد (أي السكن بشكل عام)، ومفهوم التمدين الاجتماعي، المرتبط بالعمليات الاجتماعية التي يكتسب الفرد من خلالها أنماط السلوك والتفكير والقيم الملائمة لطبيعة الإقامة[46]. فإذا كانت المدينة التقليدية تقوم كما أوضحنا على أساس التوازن بين الجانبين، فإن أهم ما يميز الأحياء الجديدة هو حجم التباعد بين طبيعة السكن المتقدم عمرانيًا وهندسيًا، ونوعية القيم والسلوكات الممارسة داخل هذا العمران. أليس ذلك ما قصده الجغرافي المغربي محمد الناصري، في أسفه على غياب التمدنية، المحركة سابقًا للتطور الحضري والاجتماعي الخاص بالمجال الحضري المغربي، مؤكدًا أنه كلما تنامت المدن وازداد عددها، كلما تقلص المدينيون[47].

إن غياب التمدين (ليس بالمعنى القائم على الذم والتهجين لباقي الفئات الأخرى) هو مؤشر بارز لغياب النموذج الثقافي للمدينة، والذي يجعل من التحسن الأخلاقي حجر الزاوية في تحليل الوضعية الاجتماعية. مما قد يحدث اضطرابًا وتفككًا يشمل العلاقات

[44] Bereguier. H: (1954), p.425

[45] عبد الرحمان رشيق: 2020، ص. 5

[46] كوستللو.ف.:1982، ص. 155

[47] Naciri Mohamed: (1986), p. 291


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

الأسرية والقيمية والعقائدية والسلوكية. ذلك ما أشار إليه إميل دوركهايم في زمن سابق، حين أثبت دور التناقض الحاصل بين الكثافة السكانية والكثافة الأخلاقية، وما يحدثه من آثار سلبية على توازن الأشخاص والجماعات. تصل في حالات معينة إلى مستوى تهديد النظام الاجتماعي بكامله.

هل يمكن القول أن المجال الحضري الحالي لم يعد قادرًا على إنتاج شروط توازنه واستمراره، وبالتالي تخلى نهائيًا عن وظيفته التنشيئية؟ أم أننا إزاء أشكال مجالية جديدة، لازالت تبحث عن تمدينها الاجتماعي؟

**3- تشتت الوحدات الخدمية وتباعدها:**

من الملاحظ أن شبكة الخدمات الاجتماعية داخل المدن التقليدية كانت تتوزع على محورين: ثابت ومتحرك. الأول مرتبط بالدكاكين الصغيرة والحوانيت والأفران والحمامات الثابتة في المكان، والثاني يشمل الخدمات المتحركة كبائعي الخبز، السقائين، المعالجين، الزبالين، أصحاب القواديس، أصحاب الحليب، الطراحين، وبائعي الفواكه... إلخ. هذا النشاط اعتمد على توفير شبكة من الخدمات المتبادلة، كان الفرد خلالها قادرًا على مراقبتها وضبطها.

أما الأحياء الجديدة فينعدم فيها تقريبًا المحور الخدمي المتحرك، وتجنح باقي الخدمات نحو التمركز والتباعد فيما بينها، بحيث يصبح لمسألة المسافة القريبة أو البعيدة من الوحدات الخدمية الأساسية داخل الحي دور كبير في ضبط الإيقاع اليومي للأفراد، وكذلك في اختيار وتنظيم مقر سكناهم. طبعًا بدأت بوادر الإدراك الجيد لهذه المسألة في المدن الجديدة، وأصبحت رغبة المتاجر في الخدمة الاجتماعية المتحركة واضحة. لكنها أدخلت كقيمة مالية مضافة إلى ثمن السلعة أو الخدمة، وأصبح النفع الاقتصادي والتجاري واضحًا في مثل هذه المعاملات. بالإضافة إلى انعدام قدرة الفرد أو الجماعة في مراقبة شبكة التبادلات التجارية أو ضبط مصادرها.

استطاعت المدينة الجديدة في حمأة تطورها المتمادي، أن تحقق استقلالية الفرد، وبنفس القدر ساهمت أيضًا في الحفاظ على حميميته. لأن ضمور الحياة الجماعية كان نتيجة لانبثاق عوالم الأفراد المعزولين، والمستقلين بشكل يكاد أن يكون تامًا وكاملًا. إن الفردانية كسلوك ثابت أو مؤقت، مرتبطة بالمدينة والحرية التي تمنحها لساكنيها. ولعل القاعدة الأكثر انتشارًا في المجال الحضري الجديد هي التجهيل أو التغافل، حسب عالم الاجتماع الحضري عبد الرحمن رشيق. وسواء استعملنا التغافل أو التجهيل، فالأساسي هو عدم الاهتمام بمعرفة الآخرين أو الانشغال بهم. لقد أصبحت المدينة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا في وعي الساكنة بصورة الذات، ذات الإنسان السائدة في المجتمع الذي ينتمي له.

وبالتالي فإن الحرية المتجلية على مستوى اللغة والحركة والاختيارات والأنشطة غير المتوقعة من الأفراد، وبمعزل عن آراء الآخرين بما فيهم الجيران، في مثل هذه الحرية بالضبط، يتحدد بشكل كبير التوجه العام للحياة الاجتماعية داخل المدينة الحديثة.


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

**خاتمة:**

هذه الدراسة لا تسعى إلى إثبات أفضلية المجال التقليدي وإيجابيته في تحقيق التنشئة الاجتماعية التامة لأفراده، ولا للتأكيد على هجانة واختلال التشكيلات المدينية الجديدة، بل فقط للإشارة إلى مدى أهمية "النموذج الثقافي" الذي ينبغي أن تبنى المدينة على أساسه. هذا النموذج الذي سمح في الماضي بإنجاز عمران يستمد أسسه وقواعده من المبادئ النابعة أصلًا من المجتمع، لم يعد اليوم في مواجهة المد الفرداني قادرًا على تحقيق ذلك. وتقديرًا لخطورة هذا الانفصال، فإن التلازم بين الجانب المورفولوجي والجانب الاجتماعي هو المدخل المهم من أجل ترسيخ السلوكات المدينية القادرة على استيعاب المد الحضاري الحداثي بدون ألم ولا تناقض أو نرجسية. وبالتالي تبني القيم والمبادئ المشجعة على التعايش بين المكونات المختلفة داخل المجتمع الحضري، بما يحقق التضامن المتبادل (Empathie)والجوار الحقيقي المانع لكل "الحروب الأهلية" المتربصة. إن الاحتجاجات التي تنفجر حاليًا على مستويات عدة داخل المدينة، وفي وجهها الاجتماعي والسياسي، هي محاولة للبحث عن الثقافة الحضرية التي تعيد للمدينة وظيفتها الإدماجية من خلال صيرورة التنشئة الاجتماعية، التي مكنت من إيجاد التوازن المعقول بين القيم والسلوكيات اليومية المعبرة عنها.

ولعل ما يجعل المقارنة بين الكيانين ذات أهمية بالغة، كونها تثبت أن المدينة الحالية قد أصبحت عرضة لشتى أنواع الحيف، وساحة لكل الصراعات المعبرة عن حيرة مجتمع يعيش صيرورة تحوله بإيقاعات متباينة. ومع ذلك، لا يمكن التغاضي عن القاسم المشترك بين الكيانين، والكامن في التنشئة الاجتماعية المولدة لقيم الاندماج والتكيف. فإذا كانت "التمدنية" بالمعنى المشار إليه، هي الوسيلة الناجعة في بناء "الشخصية الاجتماعية" في المدينة التقليدية عبر تشكيلتها الفرعية "الحومة"، فالمدينة الحديثة بدورها فسحت المجال نسبيًا لتنشئة اجتماعية تسعى للمطالبة "بالحق في المواطنة" كمبدأ أساسي في صيرورة الانتماء الحضري الكامل.

إن شعار "الحق في المدينة (Droit à la ville) "لا يمكن فصله الآن عن الحق في "أنسنة المدينة .(Humaniser la ville) "وبالتالي الرفض المنطقي لكل أشكال الجور الاجتماعي، والتهميش المتنامي، لأجزاء مدينية معينة أو مناطق حضرية بكاملها (المدينة التقليدية، الأطراف، مدن القصدير، السكن العشوائي...). ليس فقط بدافع التضامن، ولكن للمساهمة في تقوية التماسك الاقتصادي والاجتماعي في المدينة. من الواضح والمعلوم أنه لا يمكننا إعادة إنتاج المدينة التقليدية، لكن لو جعلنا من المدينة الحديثة محركًا حقيقيًا للتنمية بكل أشكالها، وموطنًا للتضامن الاجتماعي بين المجالات المختلفة، فقد نوفر بذلك الأوضاع والشروط الحقيقية "لمواطنة حضرية" مترسخة في البرنامج المديني بشكل أفضل. مما يعني أن التهافت على نموذج المدينة الحديثة، بصرف النظر عن المآلات المحتملة لجاذبيتها، وطبيعة النظام الاجتماعي الحاضن لها، قد لا يكون البديل الممكن لانهيار المدينة التقليدية، وتدهور وظائفها ومجالاتها.

وفي تقديري، مصادرة أهمية القيم التي عكستها المدينة التقليدية، من خلال عناصرها الداخلية سواء في جانبها الفرعي أو الكلي، لن يمكننا في النهاية من بناء مدن قادرة على استيعاب وإدراك خطورة "سلطة العقار" المتحكم في توزيعنا وتصنيفنا وتنظيمنا، دون أن نمتلك الإحساس العميق أو المشاعر الصادقة بالانتماء لهذه البنايات الشاهقة، والعمارات المتناثرة، والأضواء الساطعة، التي نسميها "المدينة الحديثة."


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

لذا، يمكننا طرح السؤال النهائي: ما هي مسؤولية "السلطة العقارية" في توجيه وهيكلة المدن الجديدة؟ وهل منطق التشييد والتعمير يرتبط، من حيث المبدأ، بالقيم الإنسانية الممجدة لكرامة الساكنة ورفاهيتها؟ وحتى لو اعتقدنا أن هذه الثنائية (بين المدينة القديمة والحديثة) لم تعد مقبولة، كون واقع التطور الحضري سوف يفرض علينا أشكالًا حضرية جديدة تتجاوزها بكثير، ونعني أساسًا المدن الذكية، فسوف يبقى السؤال المطروح: إلى أي حد سيحافظ هذا الذكاء على القدرات الإنسانية في التعايش والتجاور والتراحم، حتى لا يسقطنا في "مدن الغباء"؟


- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

**مراجع البحث:**

**-المراجع باللغة العربية**


- المرجان، محمد .(2004) .*مقاربة سوسيولوجية لآليات التغيير الاجتماعي بشمال المغرب* .تطاون: أسمير.
- الزواقي، محمد، &المصباحي، العربي .(1989) .*الخصائص العمرانية و الحضرية للمدينة العتيقة* (الندوة الوطنية حول دور الجماعات المحلية في الحفاظ على التراث و توظيفه لصالح التنمية). تطوان.
- الناصري، محمد .(1999) .*المجتمع المدني بالمغرب، الوظيفة الاجتماعية للمجال الحضري* .ترجمة محمد المرجان. مجلة نوافذ، العدد 3، يناير.
- الصباغ، محمد .(1979) .*تطوان تحكي* .تطوان: دار الثقافة.
- بركات، حليم .(1985) .*المجتمع العربي المعاصر* .مركز دراسات الوحدة العربية.
- رشيق، عبد الرحمن .(2020) .*السياسة العمرانية و العلاقات الاجتماعية في المغرب* (المدينة العربية تحديات التمدين في مجتمعات متحولة). المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت.
- كوستللو، ف .(1980) .*علم الاجتماع الحضري (التمدين في الشرق الأوسط)* .ترجمة د. أبو بكر باقادر. دار القلم. بيروت.


**المراجع باللغة الفرنسية:**


- Adam, A. (1980). *La Médina dans la ville d'aujourd'hui*. In *Systèmes urbains et développement au Maghreb*. Céres, Tunis.
- Acheroy, C. (2018). *Le savoir être de la sociabilité enfantine et la question de la violence entre pairs*. Ceres.
- Bouhdiba, A. (1995). *Durée et changement dans la ville arabe*. In *Quêtes sociologiques*. Ed, Cérés, Tunis.
- Bereguier, H. (1954). *Monographie d'un quartier de Casablanca (derb ghellef)*. Bulletin social et économique de Maroc, Vol. XVIII, N 63.
- Brunot, L. (1942). *La politesse et les convenances chez les Marocains*. Casablanca.
- Bourdieu, P. (1978). *Choses dites*. Ed Minuit, Paris.
- Chadoin, O. (2011). *La ville des individus*. L'Harmattan, Paris.
- Denis, M., & Durlers, H. (2005). *Modes de sociabilités enfantines dans l'espace publique urbain et formes scolaires*. In *Formes de l'éducation : variété et variation*, Louvain-la-Neuve: Raisons éducatives.
- Duvignaud, J. (1980). *Le jeu de jeu*. Ed, Balland.
- Eicklman, D. (1980). *Formes symboliques et espace social urbain*. In *Systèmes urbains et développement au Maghreb*. Céres, Tunis.
- Echarrif, H. (1999). *Les formes communautaires, influences des appartenances collectives sur les sociétés*. In *Etat du Maghreb*.
- Heiniche, N. (1997). *La sociologie de Norbert Elias*. Ed, La découverte, Paris.
- Hoggart, R. (1970). *La culture de pauvre*. Ed, Minuit, Paris.
- Jean, R. (1998). *Sociologie urbaine et rurale, l'espace et l'agir*. L'Harmattan, Paris.



- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

- Khattibi, A. (1993). *Portrait de Marocain*. In *Penser le Maghreb*. Ed, SMER, Rabat.
- Lapidus, L. M. (1967). *Muslim cities in the later middle Age*. Cambridge, Moss.
- Lefevbre, H., & Catherine, A. (1986). *Essai de rythme analyse des villes méditerranéennes*. Revue Peuples Méditerranéennes, N 37, octobre-décembre.
- Ledrut, R. (1981). *Sociologie urbaine*. Presse universitaire de France, Paris.
- Maffesoli, M. (1979). *La conquête du présent*. Ed, PUF, Paris.
- Maffesoli, M. (1988). *L'imaginaire dans l'espace urbain Post-moderne*. In *Imaginaire de l'espace, Espace imaginaire*. Faculté des Sciences humaines, Casablanca.
- Maffesoli, M. (1985). *La connaissance ordinaire*. Ed Méridiens, Paris.
- Löw, M. (2015). *Sociologie de l'espace*. Ed, de la maison des sciences de l'homme, Paris.
- Naciri, M. (1986). *Regards sur l'évolution de la citadinité, au Maroc*. In *Point de vue sur les villes du Maghreb et du Machrek*, Middle Eastern cities in comparative perspective. Ed, K. Brown, Press, London.
- Ouarti, A. (1998). *Loisir et Tourisme, un nouveau champ dans la sociologie Marocaine*. In *Les sciences humaines et sociales au Maroc, Etudes et arguments*. Institut universitaire de la recherche scientifique. Rabat.
- Rimbaud, P. (1969). *Société rurale et urbanisation*. Ed, Seuil, Paris.
- Ricœur, P. (1995). *Histoire et vérité*. Ed, Seuil, Paris.
- Rivet, D. (2002). *Le Maghreb à l'épreuve de la colonisation*. Ed, Hachette, Paris.
- Sijilmassi, M. (1984). *Enfants du Maghreb entre hier et aujourd'hui*. Mohammedia: SODEN.
- Veille, P. (1986). *L'urbain et le Mal de la modernité*. Revue Peuples Méditerranéens, octobre-décembre, N 37.



- © 2023 SSJ. All Rights Reserved